مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الحِجرِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الحجر

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الحجر

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾

ابتدأت سورة الحجر بثلاثة من الحروف ﴿الٓر﴾ وهي حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي، ليدفعه ذلك شوقاً لمتابعة ما بعدها. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فهو عند الله تعالى، إذ هي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، فنؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر. ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها(١)

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.(٢)

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب معناه عنها، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، يُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصفت به من الأوصاف الحكيمة العظيمة ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ فهذه آيات القرآن الْمُحْكَم المبين، فإنه مُحكم من الباطل، والخلل، والاختلاف، والتعارض، وأن أحكامه واضحة جلية، قد أوضح الله تعالى فيها الحلال والحرام، وفَصَّل الحدود والأحكام، وأوضح فيه الأخلاق والإحسان، والوعظ والترغيب والترهيب بما يدفع الإنسان للطاعة ويبتعد عن العصيان.

ومن غزارة المعنى أن مكونات هذه الآية تعطي العديد من الدلالات المتنوعة بالرغم من قلة كلماتها، فاسم الإشارة ﴿تِلۡكَ ﴾ يشير إلى آيات هذه السورة باعتبار موقع ﴿تِلۡكَ ﴾ من السورة، قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن ﴿تِلۡكَ ﴾ في سورة يونس: إنها إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم[٢] وباعتبار أنها بمعنى: هذه، فتكون بمعنى هذه آيات الكتاب، فتشمل جميع آيات القرآن الكريم، وكلا الوجهين صحيح الدلالة، مما يفيد عمق البناء البلاغي للنص الكريم، بحيث أعطى دلالتين، أو وجهين صحيحين، إذ لا تضاد بينهما، وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وفي اسم الإشارة ﴿تِلۡكَ ﴾ ما يفيد التعظيم والتفخيم، وفي ذلك لفت الانتباه وشده لمضمون الكتاب، ليحصل المزيد من التأمل والتفكر في آيات القرآن الكريم، فإنه يتبين لكم أيها الْمُخَاطَبُون من عمق معانيه ودلالاته، ومقاصده وتشريعه، وقوة بيانه أنه مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، مما يستلزم التصديق به، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي نزل عليه القرآن العظيم.

ومن دلالة قوة إعجازه أن هذا الكتاب ﴿ءَايَٰتُ ﴾ وليس آية واحدة، بل ﴿ءَايَٰتُ ﴾ كثيرة، ومتعددة، ومتنوعة فيما تناولته. ثم عَرَّف سبحانه وتعالى الآيات بأنها ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فإنها آيات الكتاب، التي تَكَوَّن منها هذا القرآن العظيم، فإنه الكتاب الواضح الْمُبَيّن الذي أُنزِل على رسوله صلى الله عليه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٢١)

وسلم. بما يفيد كمال محتواه، وعظيم دلالاته ومقاصده، ونظمه، إذ أصبح بمجموع آياته كتاباً متكاملاً في مضمونه ومحتواه من كل وجه. وفيه التقرير بأن هذه الحجج التي قد تَكَوَّنَ منها الكتاب المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتي هي من حروف العربية التي منها ﴿ الٓر ﴾ مما تعرفونه ولا تنكرونه، بما يفيد بيان قوة معناه ومبناه الذي أنتم عاجزون عنه. والكتاب اسم جنس، يدل على كماله.

ثم ذكره سبحانه وتعالى هذا الكتاب باسمه المخصص به ﴿ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اسم علم، قد عُرِف به من تسميت الله تعالى له بهذا الاسم، وفي ذكر القرآن بدون ال التعريف لدلالة لتفخيم، بأنه القرآن الكامل المبين، المتصدر في جنسه، فآيات هذا الكتاب بلغت منتهى الكمال، وأن منتهى كمال الكتاب دليل على منتهى ذروة كمال آياته. ثم ذكر من صفاته، أنه ﴿ مُّبِينٍ ﴾ فاستجمعت هذه الصفة كمال معني ومفردات ودلالات الوضوح، الذي انتفى به النقص، والغموض، والخلل، فاستحق كمال الثناء، لحقيقة ما تضمنه من قوة البيان، وجزالته، وبلاغته، فهو متضمن للإبانة التامة لفظاً ومعناً، فقد انتفى الباطل والخلل والتعارض والاختلاف عن هذا الكتاب، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه.

ثم بعد مطلع السورة البياني لآيات القرآن الكريم، وما دلت عليه من آيات الإعجاز، يكشف الله تعالى عن أمنيات ووداد الكافرين حين يرون حقيقة العذاب، فقال عَزَّ وجل ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ فسوف يتمنى الكفار حين يرون العذاب أن لو كانوا مؤمنين موحدين لربهم عَزَّ في علاه ﴿ رُّبَمَا ﴾ وهي كلمة موضوعة للتقليل، كما أن كم، للتكثير[١] وذكر الزمخشري رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ رُّبَمَا ﴾ التي وردت في سياق الماضي على أمر مستقبل ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ أن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، وتكون ودادتهم عند الموت، أو يوم القيامة، إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، ومعنى دلالة التقليل في ﴿ رُّبَمَا ﴾ أنها على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: ولو كان الندم مشكوكاً فيه، أو كان قليلاً، لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل[٢] فالعقلاء يتحرزون من المظنون كما يتحرزون من المتيقنين منه.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٩/٤)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٩٠/٢)

وهي كلمة تدل في سياقها مع ما بعدها على الحسرة والندامة يوم لا ينفع الندم، فصورت الحال فيما سيكون عليه الكافرون ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ﴾ ولتعطي التحذير من ساعة التمني والوداد التي لا يمكن تحصيل رجائها عند الموت ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ فيود الكافرون ذلك الوقت لو تحقق منهم الإسلام، ولكن بعد فوات قبوله منهم، وحرف ﴿ لَوۡ ﴾ يدل على تمني ما هو ممتنع عليهم، وهو تحقق الإسلام، فتفيد وتؤكد الحسرة وقوة الندم، ساعة لا تنفع الحسرة ولا الندم.

ثم يوجه الله تعالى الخطاب لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ اتركهم، ولا تبالي بعنادهم، فليأخذوا حظوظهم من الدنيا، ويتلهون بآمالهم فيها ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فسوف يوقنون، ويتحقق لهم العلم اليقيني بما أُنذروا به من العذاب يوم القيامة، فيجدون وبال ما صنعوا. بما يفيد التهديد والتقريع والإنذار والوعيد الشديد لهم، والتحذير من ذلك اليوم. وقد تضمن البيان وصف حالهم في الدنيا من عدة أوجه: الوجه الأول: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ ﴾ فاتركهم يأكلون مما يسعون من أجله، وهو التمتع بالطعام، وما يكتسبون من الدنيا، وورد الوصف بصيغة المضارع، ليفيد استمراريتهم في واقع حالهم الذي هم فيه من الأكل، مما يفيد التوبيخ لحالهم. والوصف الثاني: ﴿ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ واتركهم يتمتعون، وهو وصف شامل وجامع لجميع ما يتمتعون به من شتى أنواع التمتع الدنيوي، مما يكشف انغماسهم في متاع الدنيا، وتقديمه على مصالح الآخرة، وأما الوصف الثالث فهو: ﴿ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ ﴾ بما يفيد أن الأمل شاغلهم، وآخذ بعقولهم إلى درجة معاداتهم للحق. إذ أن الأمل: ترقب وظن بحصول مأمول ومرغوب فيه، وفي تلهيهم بالأمل دلالة على أنهم اشتغلوا بما يتمنون حصوله وتحصيله، واجتهدوا فيه اجتهاداً ملهياً لهم عن صلاح أمرهم. مما يكشف عن صورة حالهم، ليعطي المؤمن: الحذر من أن ينشغل بشيء مما انشغل به الكافرون، فلا يكن همه الطعام والشراب والاستمتاع والأمل فيما لا فائدة فيه، فيلهيه ذلك عن طاعة الله تعالى، فيتفاجأ بانتهاء أجله وهو في بُعد عن الله تعالى.

ثم من جمال البيان وقوة دلالته أن انتهت الآية بالتعريض بالعذاب بجملة عَمَّا يوعدون به من الحقيقة القاسية ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فإنهم موعودون بما أخبرهم الله تعالى به في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فأفاد هذا التعريض: قوة التهديد والتحذير.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم عدله، بأنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ والقرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس[١] والمعنى: أنه ما أهلكنا قرية من القرى، بأي نوع من أنواع العذاب ﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ أي: إلا لها أجل محدد، لا تتقدم عليه، ولا تتأخر عنه. فإن الله عَزَّ وجل لا يُهلِك قرية بأي نوع من الهلاك إلا بعد أن يمنحها سبحانه وتعالى الوقت الكافي لإقامة الحجة والبراهين عليها.

وأن صفة الكتاب أنه ﴿ كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ غير مجهول، فمستبعد عن هذا الكتاب المقرر لأجلها التخلف أو النسيان، فهو قطعي الموعد. مما يبين أن منهج الله تعالى واضح مبين، وكل شيء له تقديره، ووقته، وأن هذا الكون يسير وفق سنن منظمة، مُقَدَّرَة، فليس فيه خطأ ولا تقصير، ولا يعتريه نسيان. فلا يُهلِك اللهُ تعالى قرية بأي نوع من الهلاك إلا بعد أن يمنحها سبحانه وتعالى الوقت الكافي لإقامة الحجة والبراهين عليها، ثم يحل عليها العذاب في وقت محدد بعد رفضها للحجج، فلا يتقدم موعدها ولا يتأخر. مما يفيد أن إمهال الله تعالى للعباد أو العبد لا يعني النسيان، ولا يعني التخلف، ولا الترك، بل هو موعد محدد، مما يفيد الحذر والتحذير من العاقبة بعد العلم والتعليم بمنهج الله تعالى. وأن على الفرد أن يقيس ذلك على أمره وشأنه، فإن إمهال الله تعالى لا يعني الموافقة على انحرافه، ولكن لأنه لم يحن موعده بالجزاء، أو تسليط العذاب عليه، فواجبه أن لا يغتر بحلم الله عَزَّ وجل، وأن يعرف منهج ربه تبارك وتعالى في إيقاع العقوبة. كما أفاد البيان الكريم من الله تعالى أهمية التذكير بأحوال من أخذهم العذاب من أهل القرى.

ثم يؤكد الله تبارك وتعالى الكتاب المعلوم بقوله عَزَّ وجل ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ فما تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها، ولا يتأخرون عنه أبداً، فلا يجيء هلاكهم بعد الأجل المضروب لهم، ولا يتقدم عما حدده الله تعالى لهم، ففي تحديد الموعد بيان لقوة ودقة قضاء الله تعالى، وتنبيه وتعليم لمن يتمادى في طغيانه، ظناً منه أنه لا عقوبة له على فعله. ومن عمق البيان أن لفظ ﴿ أُمَّةٍ ﴾ مؤنث، وسبقها الفعل ﴿ تَسۡبِقُ ﴾ بصيغة التأنيث، وكلمة ﴿ أَجَلَهَا ﴾ بصيغة التأنيث، لأن الأمة مؤنث، ولكن كلمة ﴿ يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ مذكر. قال الفراء رحمه الله تعالى: إنما قال ﴿ أَجَلَهَا ﴾ لأن الأمة لفظها مؤنث، وإنما قال ﴿ يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ استخراجاً له على معنى الرجال[٢] فهو مراعاة للمعنى، وليفيد أن المقصد من القرية هم

---

(١) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٤٠٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٠/٤)

أهل القرية عموماً، من الذكور والإناث، ويزداد دلالة التذكير عنصر الرجال الذين هم أهل الحل والربط، ونساؤهم تبع لهم في الغالب. وهذه من دقائق الإعجاز البياني في سياق الآية الكريمة، وعظمة بنائها وبيانها.

وبعد أن ذكر الله تعالى دأب ومنهج الكافرين في الدنيا، بأنهم منهمكون في ملذاتها، ومنغمسون في مآكلهم ومشاربهم، وأنهم متوغلون في متاع الدنيا، ومنشغلون بلهوها عن الآخرة، يذكر عَزَّ وجل إمعانهم في الكفر ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ فيقول هؤلاء الكفرة من أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب الاستهزاء والتهكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ يا أيها المدعي بأن الذكر قد نُزِّل عليك، قاصدين بذلك القرآن العظيم ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ إنك لمصاب بالجنون، بدعوتك لنا أن نترك ما وجدنا عليه آباءنا، لنتبعك فيما تَدَّعي من النبوة. مما يبين مقدار توغلهم في الكفر، وصدودهم عن الحق والآيات والحجج والبراهين، وأنهم من قوة عنادهم وأساليبهم أنهم وصفوا النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ أي: أن طلبك هذا هو مطلب من اتصف بالجنون، بما يبين استحالة طاعتك، وامتثال مرادك منا. فلم يُذعنوا للحق بالرغم من الحجج والبراهين المتظافرة. مما يبين مخاطر الانسياق خلف الأهواء، وأهمية التعقل والتفكير في الحق، واتباعه، حتى ولو خالف ما اعتاد عليه الإنسان، والحذر من محاربة الحق، ومن جاء به. كما يبين هذا المسلك من الكافرين أن هناك من يريد الاحتفاظ بما هو عليه من الباطل، واستخدام الوسائل الهجومية الباطلة، بإلصاق الباطل بمن يدعوهم إلى الحق والخير، فيرمون غيرهم من أهل الحق بأبشع الأوصاف. كما يوضح هذا مقدار معاناته صلى الله عليه وسلم من قومه، ومن غيرهم. ومع ذلك صبر وجاهد حتى انتصر الإسلام وظهر بين الناس.

وبدأوا مخاطبتهم بياء النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ للفت الانتباه وشده نحو مضمون تحديهم، وإمعاناً في العناد.

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ وهو القرآن الكريم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الذكر: القرآن[١] فقد أثبتوا نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن تهكماً، حيث وصفوه بالجنون صلى الله عليه وسلم، فبالرغم من استهزائهم بما قالوا إلا أنهم أثبتوا نزول القرآن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ وأثبتوا أنه ذكر، فاعترفوا بالحق من حيث أرادوا الذم. وفي هذه المناداة للنبي صلى الله عليه وسلم مع تحديهم واستهزائهم، ووصفهم للنبي صلى الله عليه وسلم بالجنون، ما يبين ويكشف عن مقدار ما كان يجده عليه الصلاة والسلام من قومه في مكة، ومع ذلك يحلم عليهم، ويعاود دعوته لهم، رحمة وشفقة منه بهم، ورجاء

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٨١)

إسلامهم، مما يُعَلِّم الداعية للخير والحق بأن عليه أن يتحلى بالصبر، وأن يكون هدفه ومراده هو إنقاذ الناس من الكفر والنار.

ومن تماديهم وطغيانهم في باطلهم أنهم يتحدون النبي صلى الله عليه وسلم بالاستهزاء ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي: هلا تأتينا بالملائكة معك، ليشهدوا لك بالرسالة والنبوة إن كنت من فئة الصادقين. وجملة ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ تفيد تأكيد تكذيبهم السابق، بأن آية القرآن أو الذكر التي أنزلت غير كافية لهم حسب زعمهم، وأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم هي دعوة مجنون. فإن كنت على غير ما قلنا لك، فعليك أن تأتي بالملائكة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ولم يقولوا حتى نصدقك ونتبعك، فيحكموا على أنفسهم بالطاعة فيما لو نزلت الملائكة، بل عمدوا إلى أن تكون أنت صادق فيما تقول، فتنفي عن نفسك اتهامنا لك بالكذب. وفي قولهم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ما يدل على أنهم وضعوا النبي في خانة المكذبين. وهذا القول منهم منافي لما يعرفونه عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الصدق والأمانة. وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم، عندما صعد الصفا، هتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال لهم عليه الصلاة والسلام (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً[١] مما يدل على أنهم كانوا يعرفون صدقه عليه الصلاة والسلام، ويقرون له بذلك تماماً.

فرد الله تعالى على قولهم ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ ما يُنَزِّل الله تعالى الملائكة إلا بالحق، قال مجاهد رحمه الله تعالى، أي: بالرسالة والعذاب[٢] ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ ولو أنزل الله تعالى الملائكة فلن يمهلهم وقتاً إذا ما آمنوا، وفضلوا واستحبوا الكفر على الإيمان، فسوف يحل بهم العذاب العظيم، ففي هذا الطلب منهم فيما لو استجاب الله تعالى لهم، لعُجِّلُوا بالعقوبة، وما كانوا إذاً منظرين، فيكون استعجالاً منهم لأنفسهم بالعذاب العظيم السريع. وفي هذا تعليم وتنبيه، وتحذير وتهديد لهم من الله العزيز الحكيم، ووعيد شديد لهم.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٣٣٣) برقم (٤٩٧١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٧-١٨)

ثم يقول تبارك وتعالى عن كتابه الذي كذبوا به، وسخروا منه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ إنا نحن نزلنا القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ونحن متعهدون بحفظه من التحريف والتبديل، والنقص والزيادة. وقد جاء تسمية القرآن الكريم بما اعترفوا به عندما قالوا ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ وفي هذا تحدي لهم على تكذيبهم، وعلى ما يتمنونه من تلاشي القرآن، وعدم انتصاره، وانتشاره بينهم، فجاء النص الكريم بأقوى البيان والإثبات والتحدي لهم، والرد المعجز العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فبدأ البيان من الله تعالى بضمير المتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ والذي يفيد التفخيم والتعظيم، والقوة، والعزة، ثم تلاه ضمير المتكلم ﴿ نَحْنُ ﴾ الذي يفيد التأكيد لضمير المتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ وليفيد كذلك المزيد من التعظيم والتبجيل والقوة والعزة، ليبين سبحانه وتعالى عجزهم وخيبتهم، وعظمة القرآن الكريم، بأنه مُنَزَّلٌ من الله تبارك وتعالى، ويتكرر ضمير المتكلم على وجه المزيد من التعظيم والتفخيم ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ليعطي دلالة على عظمة التنزيل، وعظمة من أنزله، وعظمة الْمُنَزَّل، ومكانة ورفعة المنزل عليه، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك منزلة من أخذ به، لأن من أخذه فقد أخذ بعظيم من نبي كريم عن الْمَلَك جبريل، عن الله العظيم سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ وسمى الله تعالى القرآن بالذكر، لما في دلالة الذكر من المعاني والمقاصد، والمسائل والدلائل البينة الواضحة التي تضمنها القرآن الكريم، وأن تلاوته ذكر، وبه يتذكر الإنسان، فيعرف به الحق ليتبعه، ويتذكر به الباطل ليجتنبه، ويتذكر به ما يزيد في إيمانه، ويتذكر به الآخرة، ويتذكر به الجنة والنار، وقِصَرِ الحياة الدنيا، وفنائها، ويتذكر به ما يدفعه إلى الخير والبعد عن الشر، ويتذكر بمعانيه ومقاصده خير الدنيا والآخرة، ويتذكر بما فيه من القصص، وما فيه من ضرب الأمثال، وما فيه من الأجر والثواب، فيندفع المؤمن لتلاوته وتدبره، وغير ذلك مما لا يحصيه الإنسان من مواقع ومواضع التذكير.

ثم يؤكد الله تعالى بأنه قد تولى حفظ كتابه العظيم ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فإنا حافظون للقرآن من الزيادة والنقصان، ومن التلاشي والتحريف والتغيير والتبديل. مما يفيد أن حفظ القرآن ليس موكل لأحد من خلقه، بل له سبحانه وتعالى، وما عناية المسلمين بالقرآن إلا توفيق من الله تعالى، وتسخيرا لهم، ليكونوا سبباً بتعاهدهم لحفظه عن ظهر قلب، والعناية بحفظه في المصاحف، مع توارث تعليمه وتدريسه، في سلسلة لا تنقطع، منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فهو محفوظ من الله تعالى عن الزيادة والنقصان، وعن التلاشي، وعن التحريف والتغيير والتبديل.

ومن عظيم بيان النص الكريم أنه تصدر حفظه بضمير المتكلم ﴿وَإِنَّا﴾ لتفيد التفخيم، والعناية بالقرآن الكريم ﴿لَهُۥ﴾ للقرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ بما يفيد أن القرآن العظيم في عناية خاصة من الله تعالى، وقد أُضيف واو الجماعة في فعل الحفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ للدلالة على التفخيم، وقوة الحفظ له، وكذلك تعظيم شأن الحفظ، وإبراز منزلة ومكانة المحفوظ، وهو القرآن الكريم، ليدل كل ذلك على تعاظم منزلة القرآن العالية الرفيعة، وبالتالي فإن من خدم واعتنى بالقرآن فإنما اعتنى بأمر وشأن عظيم، قد عَظَّمَهُ الله تبارك وتعالى، واعتنى به عناية جليلة القدر والمنزلة والمكانة.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

ينتقل السياق في ترابط بديع مع ما قبله إلى حال المكذبين بالمرسلين قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيكشف الله تعالى ما كان منهم مع أنبيائهم، ليكون ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيما يلاقيه من قومه، وليكون أولئك المرسلين أسوة وقدوة يُقْتَدَى بهم، وليعرف عليه الصلاة والسلام أن ما يجده من قومه هو ما كان يجده المرسلون من قبل، وكذلك ليعرف المؤمنون أن تلك هي سنة المكذبين ومنهجهم ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فلقد أرسلنا قبلك أيها النبي رُسُلاً إلى أقوامهم، فكانوا يسخرون منهم، كما يفعل قومك معك. ومن جمال البيان أنه لم يذكر المرسلين، لدلالة الإرسال على أن المرسلين هم رُسُل الله تعالى، وهو استغناء عن زوائد الكلام، ليدل على جمال وبلاغة البيان. وكذلك ليدل على كثرتهم من خلال جملة ﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ففي ذلك دلالة على كثرة المرسلين، والأقوام التي أُرسِل إليهم المرسلون. وبدأ السياق الكريم بأداة التحقيق ﴿وَلَقَدۡ﴾ التي تؤكد تحقق ما سبق من إرسال المرسلين من قبلك ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وشيع جمع شيعة، وهي أمم الأولين، أي: الأمم السابقة. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن الشيعة: الفرقة والطائفة من الناس، المتآلفة، المتفقة الكلمة[1]

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١٠)

وكان دأب ومنهج تلك الأمم هو الاستهزاء بالمرسلين ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فما من أمة دعاها رسولها إلى توحيد الله تعالى وطاعته، والتزام منهجه إلا سخروا من رسولهم. فإنها حالة مضطردة في الأمم، إذ يحبون ما ألفوه وتناقلوه عن آبائهم، ويرفضون الحق على وضوحه وبيانه بالأدلة والحجج والبراهين، فما قومك المكذبين بك أيها النبي صلى الله عليه وسلم إلا مثلهم، فلا تحزن، ولا تكن في ضيق من ذلك. مما يفيد ويبين أن الناس إذا ألفوا شيئاً واعتادوا عليه، نظروا لمن خالفه بالريبة والشك، والطعن فيه بما يشتهون، فيبنون عليه المعاداة والرفض، فلا يقبل الحق ابتداء إلا الأسلم عقولاً من الحقد والحسد والكبر، ممن وفقهم الله تعالى للحق والصواب. لأن الكبر والحسد والحقد يمنع النفس من قبول الحق واتباعه. وإذا كان هذا مع دين الله تعالى، الواضح والْمُؤيد بالأدلة والحجج والبراهين، فكيف بعموم المستجدات من المباحات أو الضروريات في الحياة، مما يعطي تحليلاً دقيقاً في عملية الرفض البشري للكثير من مستجدات الحياة، وتغير العادات، بناء على ما ألفوه واعتادوا عليه، ثم يقبله البعض بعد رفضه ابتداء، وربما سعى لتحصيله حين يجد أفضليته أو حاجته إليه، وأنه الأنفع لمصالحه مما كان عليه، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة، أو بهما معاً.

ثم يخبر الله تعالى عن عقوبته لأولئك المكذبين، ولمن نهج نهجهم في التكذيب بدينه، والطعن في رُسُلِه ورسالته ﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ وكذلك نعاقب المكذبين الكافرين بجنس عملهم، فَنُدْخِل في قلوبهم عدم الإيمان. وهي عقوبة من الله تعالى، قال قتادة: إذا كذبوا سلك الله في قلوبهم ألا يؤمنوا به[1] والسلك هو: الادخال. فعاقبهم سبحانه وتعالى بجنس فعلهم، فكما سلكنا في قلوب أولئك المستهزئين ألا يؤمنوا، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين، فلا يؤمنوا به، وسواء المجرمين الذين يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم أثناء حياته، أو من يأتي بعدهم. فإن من دقة البيان أن سياق الحكم بالعقوبة الربانية شمل جميع المجرمين، سواء من كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم، أو من يأتي بعدهم. فهو إعجاز بياني، إذ شمل المخصوصين عند نزول القرآن الكريم، ومن بعدهم في كل زمان ومكان.

ثم أوضح تبارك وتعالى المزيد عن توصيف العقوبة، فقال تعالى ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: أن الذي يسلكه سبحانه وتعالى في قلوب المجرمين هو حجب ومنع الإيمان عنهم ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ومن عمق البيان: دقة الوصف، فإن دلالة ﴿نَسۡلُكُهُۥ ﴾ تعني إيصال العقوبة إلى القلب، بإدخال عدم الإيمان في نفس المجرم المكذب المعاند. قال الزمخشري والقرطبي رحمهما الله تعالى: إدخال الشيء في الشيء،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/١٤)

كإدخال الخيط في المخيط، وأسلكه: أدخله[١] مما يبين دقة وصول العقوبة إلى قلوبهم دون أن يكون لهم القدرة على منعها ﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ فإن الله تعالى يوصل العقوبة الاعتقادية في قلوب المجرمين، فلا يتحقق منهم الإيمان ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ وذلك عقوبة لهم على إصرارهم بالبقاء على كفرهم، وعدم قبول الإسلام. ومن دقائق البيان أن لفظة ﴿ بِهِۦ ﴾ من جملة ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ تفيد عموم الإيمان وجزئياته، فهي تشمل: عدم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وتشمل عدم الإيمان بالقرآن، وتشمل عدم الإيمان بالعذاب. ولذلك ذكر العلماء عنها هذه الدلالات، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الرسول صلى الله عليه وسلم، والثاني: القرآن. والثالث: العذاب[٢] ثم أكد وبين الله تعالى الحال فيمن سبق ﴿ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ وهي تشمل وقائع الله تعالى في من خلا قبلكم من الأمم، قاله قتادة[٣] رحمه الله تعالى، وتشمل دلالته كذلك: أنه مضت سنة الله تعالى في معاقبة المكذبين، بأن لا يتحقق منهم الإيمان. مما يفيد التحذير وأهمية الحذر فيمن يعاند الله تعالى بالمعاصي، من أن يجازيه الله تعالى بجنس عمله، فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق والعون.

ثم يبين الله تعالى شدة ومقدار وحجم تماديهم في الكفر والعناد، وذلك ببيان واقعهم، وما يكشفه عَزَّ وجل عما سيكون منهم فيما لو حصل لهم هذا الأمر العظيم في قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾ فلو أن الله تعالى فتح للكافرين الجاحدين باباً في السماء، واستمروا يعرجون صعوداً فيها، فرأوا شيئاً من عجائب ملكوت الله تعالى، وعاينوه بأنفسهم، حتى حصل لهم اليقين الذي لا شك ولا ريبة فيه، لكذبوا بما رأوا ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر الله تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق، أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك[٤] فيؤلون ويفسرون ما رأوا بأنهم قد سُحِرُوا، وأنهم كانوا تحت طائلة السحر ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٥٦٠) والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٨٢-٢٨٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٢٢)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٦٧)

﴿قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أي: لجحدوا ما رأوا من الآيات والدلائل، وأصروا على كفرهم، قائلين سُدت وحُبِست أبصارنا.

بل ومن شدة كفرهم أنهم حصروا قولهم بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ بما يفيد التأكد من أن أبصارهم سُدت بالسحر، وأنكروا وجحدوا ما رأوا. لإمعانهم وتوغلهم في الكفر، حتى تشربوا الكفر وتوغل فيهم. قال الطبري رحمه الله تعالى: أي: أُخِذَت أبصارُنا، وسُحِرَت، فلا تُبصر الشيء على ما هو عليه، وذهب حَدُّ أبصارها، وانطفأ نوره[1] ثم ترددوا فيما قالوا، وعدلوا إلى أداة العطف ﴿بَلۡ﴾ والتي تفيد العدول عما قبلها إلى ما بعدها، وجعلوا العلة والسبب والتفسير لما بعدها ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ ففسروا ما رأوا أنه بسبب السحر الذي تجاوز أبصارهم إلى ذواتهم كاملة، ومنها أبصارهم التي رأوا بها غير الحقيقة، بسبب السحر الذي يدَّعونه، وأن الذي رأوه وشاهدوه بأعينهم هو بسبب السحر، وليس حقيقة. مما يدل على قوة الكفر الذي عدل بهم عن الحقيقة المحسوسة إلى التكذيب والجحود، مع تأويل الحقائق، وتبرير تكذيبهم لينسجم مع ما تهواه قلوبهم من الكفر.

ومن قوة مكرهم أنهم سموا أنفسهم ﴿نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ بصيغة التكثير، ليبينوا لأنفسهم أنهم كثير العدد، بإضفاء صفة الكثرة على أنفسهم ﴿نَحۡنُ قَوۡمٞ﴾ فنفوا عن أنفسهم القلة، وأثبتوا لأنفسهم الكثرة، فلا يمكن أن يكون اتفاقنا إلا اتفاقاً صحيحاً لكثرتنا، وهذا من باب إقناع النفس بالباطل، حتى تستسلم له، وتستأنس به. لأن النفس تبحث عن المبرر لما تهواه وتريده، حتى تتهيأ له وتقتنع به، وتصمد إليه. فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق. وهذا يكشف ويبين حالة الإنسان عندما يعادي شيئاً، فإنه يبرره، ويتأول الحق باطلاً، ويبحث عن المعززات والمؤيدات الكاذبة، ليخدع نفسه، ويوهمها بأن الباطل حقاً، وأن الحق باطلاً، مما يبين أهمية الانتباه لنزغات الشيطان، وأن على الإنسان أن لا يخادع نفسه، بل يجب أن يكون صادقاً مع نفسه ومع الحقيقة.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ
١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا
فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩/١٤)

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يلفت الله تعالى حواس وعقول العباد إلى آياته المبثوثة في الكون، والتي أحاطت بهم ليلاً ونهاراً، فيعايشونها أوقات حياتهم، فدلت تلك الآيات على أن هذا الكون مخلوق للخالق سبحانه وتعالى، الذي هو رب كل شيء ومالكه، فلا يستحق العبادة غيره. ليكون في هذا بيان واستدلال على أن كفر الكافرين هو مكابرة منهم وليس غير ذلك، فقد رد عليهم سبحانه وتعالى بأن ما في الكون من أدلة كافية لو أرادوا الحق. وفي ذلك معالجة لحال من كفر، وجحد الرسالة، وجحد آية القرآن في إعجاز نظمه، ومضمونه، ودقة أخباره، وعمق أساليب بيانه، وتنوع آياته، وفي قصصه وأحكامه، وأمثاله، وتفسيره وبيانه لحال الإنسان ومآله، وطريقة نجاته، وترغيبه في رحمته وجناته، وترهيبه من عذابه وعقابه، وغير ذلك من دلالاته، وحججه وبراهينه. فيلفت سبحانه وتعالى نظر عباده إلى ما في السماء من إبداع الخلق ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ لقد خلق الله السماء العالية في ارتفاعها، وزينها بالكواكب المنيرة، وجَمَّلها للناظرين إليها من عباده، فلا يرى فيها إلا جمالاً في توزيع كواكبها، وكثرتها، وصفائها، وتنوع أشكالها، وأحجامها، وغيابها نهاراً وظهورها ليلاً في تدرج وانسجام بديع.

وبدأ البيان من الله تعالى بأداة التحقيق ﴿وَلَقَدْ ﴾ تأكيداً لكل شاك، وكل مكابر أن في هذه الآيات دلائل كافية على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعلى عظمته، ووجوب اتباع المرسلين، والتصديق بما جاؤوا به، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تقرير لهم بوضوح الدلائل، وأنه لا ينكرها إلا مكابر معاند. ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ أي: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر [١] فَيُسْتَدَلُ بتلك البروج التي هي منازل الشمس والقمر على الأوقات، وعلى أوقات الزرع والخصب، ومواسم الأمطار، وقد فسرها ابن قتيبة رحمه الله تعالى بأنها: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت[٢] ومن دقة التسمية أن سمَّاها الله تعالى بالبروج، لأن من دلالة البروج الظهور والبروز بهيئتها وجمال زينتها، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وأصل البروج الظهور، ومنه تبرج المرأة، بإظهار زينتها[٣] ومن عمق الدلالات، أن دلالة: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ تعني التحسين والتجميل، وأن هذا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠/١٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٤/٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (١٢٥/٣)

التجميل والتزيين لمقصد وغاية، وهو من أجل نظر العباد، لتشمل دلالة ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ نظر العين بالإبصار فيها، وتشمل كذلك نظر البصيرة، التي تعني التأمل والتفكر للاعتبار، والذي يستدل به على عظمة خالق هذا الكون العظيم، فإذا نَظَرَ الناظرُ إليها ببصره أعجبه حُسْنُها وجمال ألوانها، وتنوع أحجامها، وكثرتها، مع اختلاف مواقعها وحركتها، واجتماع بعضها، وتفرق بعضها، وإن نظر إليها الناظر ببصيرته حصل له بها الاعتبار الذي يهتدي به إلى الإقرار بأن لهذا الكون خالق واحد سبحانه وتعالى، وأنه عظيم في تدبيره وخلقه، وتشريعه، وأنه لا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل، واستدل بذلك على عظمته جَلَّ جلاله.

ثم بين الله تعالى حفظه لما خلق من السماء وما فيها من البروج وغيرها ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فحفظ الله تعالى السماء من كل شيطان مرجوم. فوصف الشيطان هنا بالرجيم ﴿شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ لأنه مرجوم بالنجوم، ومرجوم بالطرد من رحمة الله تعالى. قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: الرجم: المرجوم بالنجوم[١] والرجم: الرمي بالحجارة، وقيل الرجم: اللعن والطرد[٢] فالشياطين مرجومون بالنجوم كما قال الله تعالى في سورة الملك ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ فإن الشياطين ملعونة، مطرودة من رحمة الله تعالى. ثم خص الله سبحانه وتعالى من تجرأ من الشياطين على استراق السمع بالاستثناء في طريقة المعالجة والمنع والطرد. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ فمن تجرأ منهم على محاولة لاستماع لِمَا يدور في الملأ الأعلى أتبعه الله تعالى بشهاب حارق، ببريقه الواضح للأعيان، بما يعني أن الله تعالى حفظ السماء من الشياطين التي تسعى لاستراق السمع، أي لسرقة المسموع من الكلام في السماء، فإن من حاول ذلك يتبعه شهاب من الكواكب المشتعلة، فترجمه ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن الشُّهُب التي هي الكواكب المشتعلة الساطعة تتابع تلك الشياطين حتى تلحق بها وتدركها بشهابها، ومن صفة قوة هذه الشهب أنها بائنة واضحة وظاهرة ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ أي أن بريق نارها واضح من قوة توقده لمن نظر إليها من عباده، فهو ظاهر واضح للمبصر له، فيرونه من غير لبس عليهم. مما يبين ويوضح قوة آيات الله تعالى الكونية والقدرية، الدالة على قدرته سبحانه وتعالى، فيؤكد ويبين هذا التوضيح من الله تعالى لشأن الشُّهُب التي يراها العباد، ويجهلون تفسير وعلة وسبب ما

(١) المرجع السابق (١٢٥/٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/١٠)

يرون من تساقط الشهب من السماء، وهي تطارد الشياطينَ، فأصبح هذا الأمر معلوماً بالقرآن الكريم عند العباد بَعْدَ أن كان مجهولاً عليهم. فإنها آيات مبهرات، دالة على عظمة الكون، وعظمة تدبيره، وتسخيره، لتدل بمجموعها على جلالة الخالق سبحانه وتعالى وعظمته وعظمة قدرته، وتدبيره لخلقه سبحانه عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان القرآني الكريم أن لفظة ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ تفيد التكلف في الاستماع بالمحاولة وبذل الجهد، إلى درجة محاولة التخفي والتستر لسرقة المسموع من الكلام، فإنها أبلغ ما يكون في توصيف وبيان محاولة الاختلاس وسرقة القول. قال ابن فارس: استرق السمع إذا تسمع مستخفياً[١] وفي إضافة لفظ ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ إلى السمع ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ ما يبين أن المحاولة الشيطانية خاصة بأداة الاستماع، دون النظر، ودون أي حاسة أخرى. كما أن في العلاقة بين ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ وبين ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أنها توضح وتبين أن الله تعالى حفظ السماء من الشياطين، لما يعلمون من عقوبة من يحاول الصعود لها، ولكن هناك من الشياطين مَن يحاول أن يسترق السمع، ليعرف ما يحدث في السماء، ولذلك وردت ﴿مَنِ﴾ للتبعيض ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أي: ليس كلهم، بل من تُسول له نفسه، أي بعضاً منهم، وليس كلهم يحاول استراق السمع. ولعظيم حفظ الله تعالى السماء، فإنه يعاقب تلك الشياطين المارده بالرجم الذي يُبْعِدُها ويصرفها عن مرادها، وربما يهلكها ويحرقها بتلك الشهب. فلا يحصل لها مرادها. ولذلك فإن الشياطين لا يعلمون شيئاً مما يحدث في السماء. وفي هذا لفتة أخرى بأن الله تعالى قد زود جنس الجان بقدرات عالية، مناسبة لهم، ومع ذلك فهم عاجزون عما لم يمكنهم الله تعالى منه.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن تمرد الشياطين: فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع، جاءه شهاب مبين، فأتلفه، فربما قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب، إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به في الصحيح[٢] والحديث في صحيح البخاري[٣]

وبعد بيان ما يتعلق بشأن السماء وما فيها من الكواكب، وتفسير ما يراه العباد من الشهب، وما تحاوله بعض الشيطان من استراق السمع مما يدور في السماء، يخبر الله تعالى عن الأرض التي عليها العباد ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ فيلفت الله تبارك وتعالى أذهان

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٤/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦٨/٢)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٢٤٧/٣) برقم (٤٧٠١)

وأبصار وبصائر عباده إلى الأرض، التي بسطها لعباده، وما وضع فيها من الجبال الشاهقة الثابتة كالأوتاد للأرض، لتمنع تحركها بأهلها، لتجعلها راسية ثابتة، وكذلك يلفت الله تبارك وتعالى الانتباه إلى ما أنبت في الأرض من كل منبوت من الزروع، بشتى أنواعها وأشكالها، واختلاف ثمارها ومنتوجها، فلفت الله تعالى أذهان العباد وتفكيرهم وأبصارهم وبصائرهم إلى الأرض وما فيها من مكونات متظافرة ومتكاملة لتحقق لمن عليها أنواع الخير. فالحمد والشكر لله عَزَّ وجل.

وبدأت الآية الكريمة بوصف سعة الأرض ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ ومَدُّ الأرض يشمل بسطها وتوسعتها، لأن المد هو البسط والتوسعة، ومنه مَد البحر، وكذلك ظِلٌ ممدود، ومد اليد: أي بسطها، ليدل على توسعة الله تعالى على العباد في الأرض التي يعيشون عليها، فلم يجعلها ضيقة، فيتزاحمون عليها، بل جعلها تتسع لمساكنهم، ولزروعهم، ولمراعيهم، ولكل ما يحتاجون، حتى أنهم يستعملون ويستخدمون منها أقل القليل من مساحتها، وهذا من فضل الله تعالى، فله الحمد على هذا البسط والسعة، مما يدل على كرمه ولطفه وسعة عطائه، وعظيم خلقه وتدبيره، وسعة رزقه عَزَّ في علاه. ثم لفت الانتباه إلى مغزى وعلة وجود الجبال على الأرض ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ أي وضعنا فيها الجبال الشاهقة القوية، لتثبيت الأرض حتى لا تتحرك، فيختل حال ساكنيها وسكونها الذي هو أصل لحياة العباد ومعاشهم، ولم يذكر سبحانه وتعالى الجبال باسمها، بل ذكرها بصفتها ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾ التي تبين العلاقة بينها وبين الأرض، وكذلك الصفة التي توضح المقصد من وجودها، فذكر سبحانه وتعالى صفتها التي هي ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾ لتفيد: الثبات والرساوة، وفي هذا شد الانتباه إلى القوة التي لا يمكن أن تُضاف بهذه القوة إلا للجبال، فقد عُرفت لكم برساوتها وقوتها، وشأنها في الأرض، ونسب عَزَّ وجل عملية خلقها ووضعها له سبحانه وتعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا ﴾ بضمير المتكلم، الذي يفيد تعظيم ما ألقى، وما دبر بها لكم وللأرض، وتعظيم الذي خلق ودبر وصنع.

ثم لفت سبحانه وتعالى أبصار وعقول عباده إلى نعمة ما يأكلون من الزروع، وما يصنعون منها ويدبرونه من المنافع العظيمة المتنوعة ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ فأنبت الله تعالى في الأرض من جميع أنواع النبات المقدور المعلوم. وكلمة ﴿ وَأَنۢبَتْنَا ﴾ تفيد الإخراج، بأن عملية إخراج الزرع من الأرض هي من الله تعالى، وليست منكم، فإن الفلاح يحرث، وينثر البذور، ولكن ليس هو الذي يُنبت الزرع، فَيُخرجه من الأرض. فإن الإنبات هو لله العزيز الكريم.

والإنبات يشمل عموم ما يخرج من الأرض من الزروع. لتستوعب صغيرها من الحشائش، وعظيمها من الأشجار الباسقة، والممتد منها على الأرض، وغيرها من الأنواع، فضلاً عن تنوع عطائها من الخضروات

والفواكه للإنسان، والحشائش للبهائم والحشرات والدواب بجميع أنواعها وأحجامها. وجملة ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تفيد التنوع، والشمولية، كما تفيد كلمة ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ المعلوم والمقدور، فهو معلوم القدر، بل من دقته أنه موزون وزناً، فلا يزيد شيء عما قَدَّره الله تبارك وتعالى، وفي هذا بيان لدقة التقدير فيما خلق سبحانه وتعالى، ولبيان أن ما خلق الله عَزَّ وجل هو بِقَدْرٍ دقيق معلوم معروف، إلى درجة الوزن الذي يمثل الدقة في عدده ومقداره، وفي نسبة بعضه إلى بعض، وأن خلقه وإيجاده ليس من غير تقدير، بل بتقدير يتناسب حتى مع حاجة عباده إليه، ليكون لهم منه كفايتهم الوافية الضافية.

مما يفيد أن حرث الإنسان في الأرض هو بتقدير الله تعالى، فلن يستطيع أي مخلوق أن يزيد فيه بما لم يُقدّره اللهُ تعالى، وكذلك لا يستطيع أحد أن يُنْقِص شيئاً مما قدره الله تعالى. ليبين كل ذلك دقة الكون وإدارة الكون من الله تعالى، في إيجاده وتدبيره، وحبسه ومنعه. مما يوجب على كل من تفكر أن يدرك عظمة ما خلق الله تعالى، وعظمة التدبير فيما خلق، فما عليه إلا توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وعبوديته، وأنه لا يُسأل ولا يُعبد إلا الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن العلاقة بين الإنسان وبين الأرض وما فيها ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ فقد جعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به من المطاعم والمشارب، فلست أنت أيها المخلوق الذي جعلت المعاش فيها، بل نسب الله تعالى ما جعل فيها إليه عَزَّ وجل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ فالذي جعل لك فيها ما تعيش به هو الله عَزَّ وجل، ليكون المغزى من هذا البيان: أنه يستوجب عليك شكره سبحانه وتعالى، وعبادته وحده لا شريك له. وكلمة ﴿مَعَٰيِشَ﴾ تعني وتفيد الجمع. أي: تستوفي دلالة ﴿مَعَٰيِشَ﴾ جميع ما يمكن أن يعيش به الإنسان، ويتحقق له به لوازم الحياة المعيشية من المطعم والمشرب، والمسكن، وما يستر به نفسه، من اللباس والمساكن، وما يرتحل به وعليه من الدواب وغيرها، فهي كلمة جامعة الدلالة ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: جعلنا فيها معايش لمن ليس رزقهم عليكم من الدواب والهوام، فجعلنا فيها يا أيها الناس معايش لكم وكذلك لمن لم تكونوا لهم برازقين من المطعم والمشرب والمأوى، لتشمل جميع الموجودات من الدواب والحشرات والطيور التي تتنقل وتأكل وتشرب بنفسها، من غير عون ولا مساعدة من أحد لها من البشر. وفي هذا لفت الانتباه والنظر والتبصر والتعقل إلى تلك الموجودات من غير الإنسان، كيف أن الله تعالى رزقها من غير جهد منها، ولا من غيرها لها، كما رزقكم بما في الأرض من غير طلب منكم.

ومن دقائق البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن المقصود بمن تشملهم ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ فقال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أقوال أهل العلم: أنهم العبيد والإماء، وقول من قال بأنهم: الدواب والأنعام، فقال: أنه لما وُصِفَت الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصف به الناس، فيقال: للآدمي معاش، ولا يُقال للفرس معاش، جرت مجرى الناس... وأنه إذا اجتمع الناس وغيرهم، غُلِّب الناس على غيرهم، لفضيلة العقل والتمييز[١] وهذه من دقة البيان في القرآن الكريم، ومن دقائق الفهم عند أهل العلم ممن اشتغل باللغة والتفسير.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم خزائنه، وعظيم تدبيره وميزانه في الخلق والرزق ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ فعند الله تعالى جميع خزائن الأشياء، وأن تنزيلها وإيجادها في الكون، والتي منها الأرض يكون بمقدار محدد ومعلوم، بحسب ما تقتضي مشيئته سبحانه وتعالى. وبدأ البيان العظيم من الله تعالى بالحصر ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ ﴾ فأفادت ﴿ وَإِن مِّن ﴾ التأكيد والحصر، أي: وما من شيء، فجمعت ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ ﴾ كل شيء، وحصرته أنه في خزائن عند الله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ والخزائن جمع خزينة، وذلك لبيان أن امتلاكه ومبعثه وإنزاله وتقدير نفقته أنه عند الله تعالى، فهو المتصرف فيه عَزَّ وجل، وأنه في حُكْمِه وتدبيره جَلَّ جلاله، فلا يكون ولا يخرج شيء إلا عن أمره سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ حصر لعموم الأشياء أنها عند الله تعالى، في ملكه وتدبيره، والكون كله ملكه وتدبيره ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ فما يُنَزِّلُه ويُقَدِّرُه الله تعالى لعباده إلا وفق تقديره سبحانه وتعالى، فلا يخرج عما قَدَّرَه واقتضته مشيئته عَزَّ وجل. مما يبين أنه لا يوجد في الكون من خير، وزيادة، أو نقص إلا بتقدير الله تعالى، فمهما عمل العباد، فإن أعمالهم مرتهنة بما تقضيه مشيئته جَلَّ جلاله، أفلا ترى العبد يحاول في الأمر بكل قوة وجهد، ولا يُحَصِّله، وآخر بقليل من الجهد فيحوزه، وربما نال أضعاف ما كان يتوقع، ليعلم العبد أن المعطي هو الله تعالى، وأنه فقير في قضاء حوائجه لعطاء ربه تباك وتعالى. مما يُظهر ويبين شدة فقر العبد لربه، وأن عليه الاستسلام والانقياد لمالكه تبارك وتعالى، ومدبره ورازقه، وأن عليه أن يلتجئ إليه بالسؤال والإفراد له بالعبادة بحسب ما شرع جَلَّ في علاه.

وبعد أن ذكر الله تعالى بديع صنعه في السماء وفي الأرض، تدرج البيان إلى عظيم قدرته عَزَّ وجل، فيما هو بين السماء والأرض، بما يسخره من الأمطار، التي هي من أمور السماء، لأن كل ما ارتفع وعلى فقد سما

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٦/٤)

بعلوه. وفي ذلك بيان عن عجز عباده الكلي، من خلال لفت انتباههم للمطر الذي يُنَزِّلُه تبارك وتعالى من السماء، مبينا لعباده تدبير نزوله وإنزاله لهم، وتطويع الرياح لتلقيحه واتجاهه في مساره، فيسقيكم منه ماء بارداً عذباً، ليدركوا أن خزائنه ليست عندهم، بل إنهم عاجزون عما يريدون ويتمنون ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ فيخبر الله تعالى بأنه أرسل الرياح لتلقح السحاب، فينزل منه الماء مطراً على الأرض، وقد أورد الإرسال بصيغة الماضي ﴿ وَأَرْسَلْنَا ﴾ ليفيد: تحقق عملية إرسال الرياح منه وحده سبحانه وتعالى، وقد عضد ذلك بضمير المتكلم الفاعل للإرسال، بياناً وتعظيماً لتدبيره، وتفضله وتسخيره، وبيان أنه هو المسبب لتلقيح السحاب بالرياح.

كما تفيد عملية الارسال البيان الْمُبَيِّنُ لعملية الانتقال من مكان إلى مكان، فهو الذي أرسلها من المكان الذي هي فيه إلى المكان الْمُرسَلَةُ إليه. ومن جميل الكلام أن وردت الرياح بصيغة الجمع ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعدا... وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة، فَتَقُمُ الأرض قماً، ثم يبعث الله المثيرة، فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة، فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح، فتلقح الشجر[1] مما يبين أن من علل وفوائد جمع كلمة الرياح هو لتحتوي وتتضمن أنواعها التي منها ما يحدث بها عملية التلقيح ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ فهي تقوم بتلقيح السحاب، بما تحمله من الهواء الذي يحدث به تساقط الماء على شكل قطرات متعاقبات، ثم وبسرعة تتحول بها تلك القطرات على صغر حجمها إلى مياه تجري في وقت يسير من الزمن، كما أن هناك اللواقح من الرياح للأشجار، إذ تحمل المادة المخصصة للطلع والإثمار من ذكور الأشجار إلى إناث الشجر، والذي يسمى بالتوبير الذي يقوم به المزارعون، فتقوم به الرياح المخصصة لذلك. فمَن هو الذي أبدع هذا التدبير العظيم؟ أليس هو الله تعالى؟ الذي خلق فسوى، والذي لا يستحق العبادة إلا هو، والذي يُحمد ويُشكر ويُسأل، والذي يستوجب من العبد أن يسبحه ويعظمه ويكبره ويعبده وفق ما شرع.

ثم ذكر تبارك وتعالى نعمة إنزال المطر ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ فأنزل تبارك وتعالى من ذلك السحاب الذي ارتفع وسَمَا فوق الأرض ماء تستقون منه، فقد تحول السحاب بعد تلقيحه بالرياح من هيئته الخفيفة إلى قطرات من المطر الثقيلة، التي تتساقط على الأرض، ليتكون منه الماء ﴿ مَآءً

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٦٩)

فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ فجعلناه سقيا لكم، إذ جعل تبارك وتعالى السقيا منه لكم أيها العباد، تخصيصاً لكم، بالرغم من مشاركة غيركم لكم من الحيوانات والدواب والحشرات والأشجار في شربه والإفادة منه، ولكن خص الإنسان لأنه المخاطب، ولأنه هو الأصل، وبما يفيد التكريم أيضاً، وأنه هو المراد بالسقيا، وغيره تابع له، فأي إكرام أبلغ من هذا الإكرام لعباده، فأين طاعتهم لمن أكرمهم، واحتفى بهم هذا الاحتفاء.

وكلمة ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ كلمة بليغة في دلالتها، وفي جمال لفظها، وجمال صوتها، وتراكيب حروفها، فقد أفادت العطاء والتسخير والإكرام والاحتفاء بتخصيصكم أيها الناس بهذا العطاء وبهذه النعمة دون من يشارككم من غيركم، فيكون المطر سقيا لكم ولأنعامكم ومواشيكم، وجعل غيركم تابع لكم من الأنعام والدواب والطيور والزروع وغيرها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى عجز العباد عن إدراك فضل النعمة والتسخير والتهيئة، وأنهم عاجزون عنها لولا لطف الله تعالى بهم ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ أي: ولا أنتم القادرون على تخزينه في الأرض بعد إنزاله، فتحفظون مستواه في الآبار والعيون، بل إن ربكم هو الحافظ له. ولتعطي دلالة أخرى: أي: فليست خزائنه عندكم، لتتمكنوا من إنزاله، وتقدير كمية ما ينزل منه، فنفى عنهم ما خصه وأثبته له تبارك وتعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ فمن الذي أنزله لكم؟ ومن الذي قدّر نزوله؟ ووقَّت زمن نزوله؟ وكمية نزوله؟ وهيأ لكم سواقيه التي يمر بها في الأودية والشعاب؟ إن في ذلك لآيات عظيمة جليلة، في التقدير والتكوين، والتناسب بين ما ينزل وبين حاجات العباد، وبما لا يضرهم ويغرقهم، ولا يتلف بذلك محاصيل الزروع، ولا بالقليل الذي لا نفع له. فسبحان الله الذي أنعم وقَدَّر، إنه القادر والقدير العزيز العظيم الرحمن الرحيم. فكل شيء في الكون يدل على ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته سبحانه وتعالى، ووجوب طاعته عَزَّ وجل.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما تحيا به الأرض من ماء المطر، وتنتعش به الأرض ومَن عليها، ويرتوي منه الإنسان وغيره من الدواب والأنعام والأشجار والنباتات، ينتقل البيان في تدرج عظيم إلى نشأة الإنسان ووجوده، وفنائه، ومن يخلفه. ليلفت انتباه الغافلين إلى التأمل في قدرة الله تعالى، وفي خلقه وتدبيره، وإيجاده للمخلوقين عَزَّ وجل. وما يماثله من إماتة الأرض بعد إحيائها، وإحيائها بعد إماتتها، في تعاقب مستمر، ليدرك العبد قدرة الله تعالى في إحياء الناس بعد الموت، بما يدل على كمال القدرة، وتمام التصرف على الوجه الذي لا يستحيل على الله تعالى شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ فبدأ تبارك وتعالى البيان بنون المتكلم ﴿ وَإِنَّا ﴾ مؤكَّدَة بحرف التوكيد **(إن)** المشددة، لاشتمالها على حرف التوكيد

مع ضمير المتكلم: ليدل على العظمة، ثم يزداد قوة وعظمة بضمير التفخيم والتبجيل والتعظيم ﴿لَنَحْنُ﴾ وفي هذا مدح من الله تعالى لذاته الكريمة العظيمة، وثناء عليها بالتعظيم.

ثم يبين تبارك وتعالى إيجاده للأحياء ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ فنحن أوجدنا المخلوقات حية، وكذلك نحن لا غيرنا نسلبها تلك الحياة متى ما أردنا وشئنا، فنتحكم في إيجادهم أحياء، ونتحكم في موتهم وفنائهم وقت ما نشاء، ليدل ذلك على كمال القدرة، مع ضعف قدرة المخلوق، سواء في إيجاد نفسه بنفسه، أو تأخير موعد موته وفنائه، فلا أحد يقول أنا أوجدت نفسي، واخترت لها هيئتها، ولا أحد يستطيع أن يقول سأترك الدنيا وأموت في ساعة محددة، وفي يوم محدد، وشهر وسنة محددة، عن عمر يقدره بنفسه، وبالتالي هو الله تعالى الذي يُوجِد ويُفْنِي، وهو الذي يحي ويميت، فاستحق أن يُوَحَّد ويُعبَد، وبالتالي هو القادر على إعادة الحياة، والبعث والنشور، والحساب والجزاء ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ فيرث الله تعالى الأرض من بعد موت أهلها، فليس عليها شيء يرثها من بعدهم، فإن الله تبارك وتعالى هو الوارث الباقي الدائم، الحي الذي لا يموت ولا يزول.

وفي هذا البيان ما يبين كمال قدرة الله تعال، وعجز مخلوقاته، وافتقارهم إليه. ومن جميل التمجيد مجيء البيان بضمير التفخيم ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ فهو ضمير التفخيم والتبجيل والعظمة والتعظيم، وفي هذا مدح من الله تعالى لذاته الكريمة العظيمة، وثناء عليها بالتعظيم والتفخيم. الذي يستوجب من العبد أن يعظم ربه جَلَّ جلاله، ويطيعه باتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ
﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن
يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ
لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا

عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن كمال علمه وشمول إحاطته بما سبق وبما هو قادم ممن وُلِد ومات، ومَن تأخر موتاً أو ولادة ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴾ وبدأ البيان العظيم بأداة التحقيق التي تفيد أنه قد تحقق علم الله تعالى وثبوته لمن تقدم من الأموات، ومن تأخر ولم يحن أجله بعد. وأن مِن كمال سياق الآية الكريمة أنها استوعبت كل شيء تقدم، وكل شيء تأخر، لتستوفي به مَن تقدّم ومن تأخر موته من الخلائق، ومَن تقدم ومَن تأخر من الأمم، ومَن تقدم بخير، ومَن تأخر عن فعل الخير، ومَن تقدم بِشَـرٍّ، ومَن تأخر به، ولذلك أورد علماء التفسير دلالات عدة لهذه الآية الكريمة، وجميعها تتعاضد، لتعطي سعة المعنى والمراد، فذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أي: مَن مضى مِن الأمم، ومِمّن خُلق ومَن لم يُخلق. وقيل: المستقدمون الذين هلكوا، والمستأخرين الأحياء. وقيل: ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل المستقدمين منكم في الخير، والمستأخرين عنه. وقيل المستقدمين منكم في صفوف الصلاة، والمستأخرين فيها، بسبب النساء، وقال: والأولى عندي في ذلك بالصحة، قول من قال: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم، فتقدم موته. ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حي، ومَن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد، لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ وما بعده ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾[١] مما يبين غزارة دلالة الآية الكريمة في معطياتها، وإن كان الأولى ما رجحه الطبري، ولا يمنع زيادة دلالة غيره معه.

ثم بعد بيان كمال القدرة في التقديم والتأخير يتدرج السياق إلى بيان القدرة على البعث بعد الموت، ثم الحشر لهم للحساب والجزاء ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ وإن ربك أيها النبي يجمعهم ويحشرهم يوم الحشر الذي لا ريب ولا شك فيه. وقد أكد البيان الكريم فعل الله تعالى بهم بعد بيان علمه بهم، وهذا من دقائق تتابع السياق، وتدرجه في الإثبات والبيان. فإنه قبل ذلك كان البيان عن فعله وتقديره عَزَّ وجل للخلق، من الإيجاد والإماتة والفناء، فتعاقب سياق الإثبات للعلم والإحاطة، بأن له ملك التصرف والتدبير سبحانه وتعالى، ولذلك أتبعه بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ فهو المتولي سبحانه وتعالى بحكمته وعلمه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٤٩-٥٤)

لشأن حشرهم ليوم الحساب. وقد توجه الخطاب بالبيان للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ وغيره تابع له في البيان والإيضاح، وفي هذا رفع لشأن الْمُخَاطَب صلى الله عليه وسلم، وتعظيم مضمون الحشر، وما فيه من الحساب والجزاء. وإن ربك أيها النبي جامع جميع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة، من أهل الطاعة، وأهل المعصية، والمستقدمين والمتأخرين، ليأخذ كُلٌّ جزاءه، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم حكيم في تدبيره، بأن يضع الأمور في مواضعها المناسبة لها، وهو المتصف بكمال العلم بعباده، وما كان منهم، وما يكون وما سيكون، وبما يستحق كل واحد منهم.

وقد تضمن قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتين عظيمتين لله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ أي: إنه عَزَّ وجل هو الحكيم الذي له كمال الحكمة. أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة حكمته وسعتها ورحابتها، وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم والحكمة، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء.

والصفة الثانية: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي: العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. فإن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وما قيل، وما يُقال، وما سيقال قبل أن يُقال. ويعلم ما توسوس به النفس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مُطَّلِع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى يصرف الشر ويجلب الخير. وأنه على كل شيء قدير، وأنه يسخر ما يمتنع عن المؤمن من الخير، ويكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه. وكذلك تشمل دلالة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ الترهيب لغير المؤمنين، بأن ربكم يعلم ما أنتم عليه من كل وجه وحال، ومن النوايا، والأعمال، والأقوال، فلا يخفى عليه منكم خافية.

وقد ورد البيان لهاتين الصفتين العظيمتين بأسلوب التخصيص، حيث جاء مطلعها بحرف التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الملتصق به الضمير المتصل لله جَلَّ جلاله، والذي أفاد التخصيص والتعيين بأنه لا غيره ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الذي له كمال الحكمة والعلم.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن خلقه وإيجاده للإنسان والجان. فبدأ تبارك وتعالى بالإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ فلقد خلق ربكم تبارك وتعالى الإنسان ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ والصلصال هو: الطين اليابس، الذي لم تصبه النار، فإذا نقرته صلَّ، فسمعت له صلصلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة رحمهم الله تعالى. وأما الحمأ: فقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: هو جمع حَمْأة، وهو الطين المتغير. والمسنون: قال عنه ابن قتيبة رحمه الله تعالى: المتغير الرائحة(١) فما أحوج الإنسان أن يتأمل في أساس خلقته وأصله الذي خُلِق منه، ليعتبر بذلك، فلا يتكبر، ويؤمن بالبعث والحساب والجزاء والجنة والنار. ويسبح لله تعالى على هذا التكوين العجيب، ويُذعن لربه عَزَّ وجل بالطاعة والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عن مادة خلق الجان ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ والجان اسم لهذا المخلوق، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وعنَى بالجان هاهنا إبليس، أبا الجان، يقول تعالى ذكره: وإبليس خلقناه من قَبْلِ الإنسان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السموم، الحارة التي تقتل(٢) وسُمِّي جاناً لتواريه عن الأعين(٣) ومن عظيم خلق الله تعالى، وعظيم قدرته التفاوت في أصل مادة خلق الإنسان عن الجان، وكذلك تفاوتهما عن مادة خلق الملائكة، التي خلقها الله تعالى من نور، ليبين حكمته وسلطانه، وعظيم تدبيره وتقديره سبحانه وتعالى، فهو الذي اختار هذا التفاوت لحكمته عَزَّ وجل.

ويخبر الله تعالى بموقف إبليس من خلق الإنسان، وعداوته له ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ واذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال ربك سبحانه وتعالى للملائكة ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ فإني خالق إنساناً من طين يابس. وبالتالي فإن مكونات خلق آدم عليه السلام أنه ﴿مِّن صَلْصَـٰلٍ ﴾ أي: من الطين اليابس الذي لم تصبه النار. وأن من مواصفات هذا الطين أنه ﴿مِّنْ حَمَإٍ ﴾ المتغير لونه ﴿مَّسْنُونٍ ﴾ المتغير رائحته، وذكر ابن الجوزي رحمه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٩١)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٦٢-٦٣)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٨)

الله تعالى: أن المسنون، من قولهم: قد تَسَنَّى الشيء: إذا أنتن، وقيل له مسنون، لتقادم السنين عليه[١] فهذا الإنسان مخلوق من طين يابس، قد تغير لونه ورائحته، فإن لله تعالى الحكمة فيا خلق، وفيما اختار من مادة الخلق والإنشاء، فسبحان الله العلي العظيم القدير.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما أمر به الملائكة حين يخلق هذا الإنسان من مادة الطين، فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ فإذا أكملت هيئته وصورته، وأصبح مستوياً على الكيفية التي أرادها الله عَزَّ وجل ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ونفخت فيه روح الحياة التي يحيا بها الإنسان، ويموت بخروجها منه، والتي لا يعلم ما هيتها أحد ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ فاسجدوا له سجود تكريم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: خروا له ساجدين، وهو سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، ولله أن يُفَضِّل من يريد[٢] وفي دلالة كلمة ﴿ فَقَعُوا۟ ﴾ ما يفيد الوجوب اللازم الذي لا مناص ولا عذر منه، كما يدل على سرعة التنفيذ المباشر، ويدل لفظ الوقوع ﴿ فَقَعُوا۟ ﴾ على معنى السقوط بالسجود ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ وفي هذا دليل على أن هيئتهم قادرة على الانحناء والارتخاء وأداء السجود.

ومن دلائل الآية الكريمة، أن الله تعالى هو الذي اعتنى بهذا الإنسان، ونسب خلقه إليه عَزَّ وجل، وأحسن صورته بأكمل دلالة وأحسن هيئة واستواء، وأضفى عليه مزيد التكريم له، بأن نسب التسوية إليه عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ والتسوية تستوفي كمال الهيئة والصورة والقدرة، سواء كان في قوتها وقدرتها، أو في حسنها ولطافتها، ونسب سبحانه وتعالى الروح إليه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ والتي هي خلق من خلقه تبارك وتعالى، وفي نسبتها له عَزَّ وجل ما يفيد التشريف والتكريم لهذا المخلوق، الذي نفخ الله تعالى فيه الروح بنفسه، مما يوجب على العبد محبة ربه تبارك وتعالى، وتوحيده، وعبادته كما أمر، فهو الذي أكرمه بهذه التسوية، وهذه العناية الخاصة، والأمر للملائكة بالسجود له. وأن يحب ربه، ويُجِلَّه، ويعبده ويطيعه، ولا يعصيه، وأن على العباد أن لا يتفاخروا فيما بينهم، فكلهم مخلوق من نفس واحدة.

ثم يخبر الله تعالى عن مدى استجابة الملائكة لما أُمِرُوا به من السجود ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فقد استجابت جميع الملائكة لأمر الله تعالى، فسجدوا جميعاً بلا استثناء، ومن غير

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٩٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٨)

تراخ ولا تأخير، بل إن كلمة ﴿ كُلُّهُمۡ ﴾ أفادت قطع الاحتمال من أن بعضهم أو أفراداً منهم لم يستجب، فكلهم قد امتثل واستجاب لأمر الله تعالى. ثم أكد تبارك وتعالى ذلك بكلمة ﴿ أَجۡمَعُونَ ﴾ لتؤكد الْمُؤَكَّد، ولتفيد المبالغة في وصف امتثال الملائكة وطاعتها لربها جميعاً، بلا استثناء، مع سرعة المبادرة في الامتثال، وفي هذا ما يفيد الثناء عليهم أجمعين.

إلا إبليس الذي أبى واستكبر ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ فإبليس امتنع من غير تردد، على نقيض الملائكة التي سجدت من غير تردد، فهو المستثنى ممن أُمروا بالسجود ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ مما يدل على خطورته، وعصيانه، وتمرده، بالرغم من علمه من الله تعالى بمثل علمت به الملائكة من أن الله تعالى سيخلق بشراً من طين، وقد تبينت لإبليس قدرة الله تعالى بما هو صانع قبل أن يصنع، وما هو خالق قبل أن يخلق. مما يدل على عداوته وحقده وحسده لآدم وذريته منذ أن خلقه الله تعالى. مما يُوجِب على الإنسان أن يتخذه عدواً مبيناً.

ثم يخبر الله تعالى عن حلمه وحكمته، إذ لم يبادر سبحانه وتعالى بعقوبته، وهو العالم بعلة امتناعه من غير أن يسأله، ولكن ليبين عدله، وتقرير العاصي بمعصيته ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ فأي غرض، وأي عارض وعلة منعتك عن السجود مع الساجدين، وقد بدأ النداء الكريم لإبليس بأسلوب الاستفهام الدال على الزجر والتوبيخ والتقريع. فهو سؤال عن العلة التي منعته عما يجب أن يكون عليه من الامتثال بالسجود لآدم عليه السلام ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ فبدأ إبليس قوله بأشد صِيغ النفي، إذ لم يقل: لا أسجد لبشر. بل الإعلان بصيغة الجزم ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن ﴾ ومع إضافة ﴿ أَكُن ﴾ التي افادت المبالغة في جحود استحقاق آدم للسجود، وتنزيه نفسه عن أن يسجد لآدم عليه السلام، رافعاً من مقام ذاته على آدم عليه السلام، معلناً أن ليس لآدم حق السجود مني له، بما يفيد التحقير والاستصغار لآدم، وجحود أي فضل من الله تعالى يزيد به آدم عليه، إلى درجة معصيته لربه تبارك وتعالى، مما يفيد أن طاعة الله تعالى تقتضي الاستسلام، كما استسلمت الملائكة لله تعالى بكمال الطاعة والامتثال، وأن ليس للعقل، ولا للقياس تقديم على توجيه الله تعالى وأوامره، ونهيه تبارك وتعالى.

ثم علل امتناعه بتفضيله من نفسه للمادة التي خُلِق منها على المادة التي خلق الله تعالى منها آدم ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ فإن هذا البشر الذي أمرتني بالسجود له

﴿ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾ أي: مخلوق من طين يابس، لم تصبه النار، وأن من صفاته هذا الطين أنه ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ المتغير لونه ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ المتغير رائحته، فهذا الإنسان مخلوق من طين يابس، قد تغير لونه ورائحته، وكان الأولى أن يمتثل، ويقول: ولله تعالى الحكمة فيما خلق، وفيما أمر، وفيما اختار من مادة للخلق والإنشاء. فقد استعلى إبليس على أوامر ربه تبارك وتعالى، بناء على قياس فاسد، فجعل من مادته التي خُلِق منها حكما وميزاناً في التفاضل بينه وبين آدم عليه الصلاة والسلام. مما يعلم ويفيد أن التفضيل لله تعالى، وأن على الإنسان الانتباه، والحذر من مماثلة إبليس في اختراع التفاضل على ما فضل الله تعالى.

فَحَكَم اللهُ تعالى على إبليس بحكمه العادل ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي فاخرج من المكان والمكانة والمنزلة التي كنت فيها من الملأ الأعلى ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالطرد من رحمة الله تعالى، والطرد من المكانة والمنزلة التي كان فيها. والمرجوم بالشهب، التي تفيد الطرد والإبعاد ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وإن عليك اللعنة، التي هي الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والتي تتعاقبه إلى يوم القيامة، فاللعنة عليه دائمة لا تنقطع، منذ أن لعنه الله تعالى إلى يوم الدين، الذي هو يوم القيامة، وهو يوم الحساب والجزاء، فهي لا تنقطع عنه أبداً. مما يفيد أن الإنسان إذا رفعه الله تعالى، فعليه أن يحمد الله عَزَّ وجل، ويُحْسِن فيما أنعم الله تعالى به عليه، ويتواضع لله عَزَّ وجل، حتى لا يسلبه العزيز المنان ما أنعم به عليه، وبأن لا يتكبر بالنعمة على غيره كما تكبر إبليس فأصبح من الهالكين، فإن النعمة منحة من الله تعالى، وبأن لا يجعل للقياس العقلي حكماً على النص والحكم الشرعي. وبأن لا يحتقر أحداً، أو يتكبر عليه، أو أن يرى فيه أنه لا يستحق ما هو فيه من خير، أياً كان نوعه، أو يحقره، أو يصفه ويزدريه بما كان عليه من القلة قبل ما هو فيه من النعمة.

ومع معصية إبليس لربه جَلَّ جلاله فإنه يسأل الله تعالى أن يُنْظِرَه إلى يوم البعث ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ فقال إبليس لربه تبارك وتعالى: أخرني إلى يوم أن تبعث خلقك من قبورهم، فتحشرهم لموقف يوم القيامة ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ فقال الله تعالى له: فإنك ممن أُخِّر هلاكه ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ الذي هو يوم القيامة ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلما عرف أنه حصل على ما يريد من التأخير إلى يوم البعث، وأنه واثق بأنه من المهلكين يوم القيامة، ازداد حسده لآدم وذريته ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فبدأ إبليس كلامه بالتعليل ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي: بما أنه حصل لي الإغواء، وهو الوقوع في الغي، فأهلكتني بالعقوبة ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن الإغواء ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ هو تكليفه إياه بما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه[١] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي فبما لعنتني فأهلكتني لأقعدن لهم، ومنه فسوف يلقون غيا، أي هلاكا. وقال ابن الأعرابي: يُقال غوى الرجل، يغوى غياً، إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه، ومنه: وعصى آدم ربه فغوى، أي فسد عيشه في الجنة[٢] فبما أنه حصل لي الغي بما وقعت فيه من عدم السجود لآدم، فأهلكتني بالطرد وجعلتني من الصاغرين، لأزينن لذرية آدم المعاصي، الذي جعلتني بسببه أكن من الهالكين والصاغرين. فالإغواء هو ما حصل من إبليس بسبب تكليفه بالسجود لآدم، فجعل هذا الأمر إغواء له. فجعل التكليف له بالسجود إغواء له، بالرغم من أنه هو الذي اختاره لنفسه، فما كلفه الله تعالى بالسجود إلا وله القدرة على الاستجابة، وله القدرة على الامتناع، فكان امتناعه بمشيئته، ولذلك سأله الله تعالى عن علة وسبب عدم سجوده ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ ولو أراد الله تعالى أن يلزمه لألزمه، ولكن من عدل الله تعالى أن يحاسبه على اختياره.

فبسبب الحسد والكبرياء اشتدت عداوة إبليس لآدم، فتوعد بإغرائهم نحو الغواية التي تُبعدهم عن الحق ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لأزينن لذرية آدم عليه السلام، بأن أحبب إليهم المعاصي، وأُرَغبهم فيها، وحدد مكان الإغواء بأنه ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ التي هي منطقة ومكان حياتهم، وحصيدهم الذي يحصدون فيه للآخرة. لئلا يعبدوك ولا يوحدوك، بأن أحبب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها. وقد حُذِف الشيء الذي سوف يزينه إبليس، ليستوعب جميع ما يزينه، فلكثرته لم يحدده البيان الكريم، ليستوعب جميع ما يمكن أن يكون من مقدوره. فيختلق لهم من الباطل والشر ما يستطيع، وبحسب تفاوتهم وتقبلهم وضعفهم وقوتهم ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لأزينن لهم الباطل حتى يقعوا فيه، ومعلوم من عداوته أنه لن يزين لهم الخير، بل سيزين لهم الشر الذي يُهلَكُون به ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: لأجعلنهم جميعاً مثلي في الغواية، فكما حصلت لي الغواية بسببهم، لأغوينهم مثلي جميعاً، وكلمة ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تفيد الهدف والغاية: بأن غوايته لبني

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٨٩)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/١٩٢)

آدم أجمعين، وبدون استثناء، فأزين المعاصي لهم، وأشغلهم بزينة الدنيا عن الدين، وعن طاعتك وتوحيدك وعبادتك، والإغواء يستوعب تعدد وتنوع الأسلوب، وتعدد وتنوع مفردات مادة الإغواء، وماهيتها، وهذه من بلاغة البيان لمعنى ودلالة لفظة الإغواء.

واستثنى من لا يستطيع إغواءهم بسبب إخلاصهم لله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فاستثنى من عباد الله تعالى الْمُخْلَصِين، الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فأخلصوا العبادة والطاعة له سبحانه وتعالى، ولم يقصدوا بها غير الله عَزَّ وجل. مما يبين أن الشياطين لا تستطيع أن تؤثر في المتقين بما يوسوسون به لهم، وبما يزينونه من الباطل، فغواية المخلصين متعذرة على الشياطين، وممتنعة عليهم، فاللهم اجعلنا من المخلصين لك، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان. وهذا يدل على أهمية الإخلاص ومنزلته ومكانته العظيمة، وأنه قوة في تحصين المسلم من الشياطين وغيرهم، مما يلزم المسلم الاجتهاد في تحصيله بأعلى الدرجات.

ثم أخبر الله تعالى أن مرجع الجميع إليه سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فإن عودتكم ستكون إليَّ، بما يفيد تحقق تحصيل الجزاء لمن استقام بما يستحق، ولمن فسق بما يستحق. وكلمة ﴿عَلَيَّ ﴾ بمعنى **(إليَّ)** فتفيد دلالة النص الكريم: أن الإخلاص طريق مستقيم يُوصل إلى الله تعالى، وإلى مرضاته عَزَّ وجل، قال الكسائي رحمه الله تعالى: هذا على الوعيد والتهديد، كقولك لمن تهدده: طريقك عليَّ، ومصيرك إليَّ ... والمعنى: هذا طريق مرجعه إليَّ، فأجازي كلاً بعمله[1] وهذه الدلالات تعطي رحابة المعنى الذي استوفى به الأوجه التي تظافرت، فأعطت تلك المقاصد المتعددة، وبسياق واحد من غير تكرار، وهو من بلاغة النص وإعجازه البياني.

ثم يخبر الله تعالى بحصانة عباده، الذين يعبدونه ويطيعونه كما أمر ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ فإن عبادي العابدون المطيعون لي ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي: ليس لك عليهم طريقة ولا حجة تغويهم بها، فحجته التي هي سلطانه من التزيين للمعاصي، وتزيين أمور الدنيا لإشغالهم بها عن طاعة الله تعالى وعن الآخرة، فإنها غير متحققة فيهم، فلا يستطيع أن يُلقيهم في ذنب تمتنع وتنتفي به ومعه مغفرة الله تعالى لهم. فإنه ليس للشيطان عليهم القدرة على ذلك، ولا حجة يستطيع أن يُغويهم بها. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ولعل قائلاً يقول: قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام في سورة البقرة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ... فالجواب: أنه ليس له سلطان على قلوبهم، ولا على إيمانهم، ولا

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٣١/٣)

أن يلقيهم في ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيله التوبة، وتمحوه الأوبة[١] ثم استثنى تبارك وتعالى من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان من اتصفوا بالغواية ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: أن الضالين عن عبادة ربهم وطاعته سبحانه وتعالى هم الذين يتسلط عليهم الشيطان بغوايته لهم، فإنه يتسلط عليهم، ويتمكن منهم.

وهؤلاء الضالين ومعهم الشياطين، موعودون بعذاب جهنم ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإن موعد إبليس ومن اتبعه من الغاوين جهنم وبئس المصير. ثم وصف الله تعالى جهنم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فأخبر تبارك وتعالى بأن عدد أبوابها سبعة أبواب، قال ابن جرير رحمه الله تعالى: لجهنم سبعة أطباق، لكل طبق منهم، يعني أتباع، فلإبليس ﴿جُزْءٌ﴾ يعني: قسماً ونصيباً مقسوماً[٢] ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لكل فئة منهم قسم وجزء وحظ معلوم. وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، والجحيم فيها أبو جهل[٣] اللهم أجرنا والمسلمين أجمعين من النار، ومن جميع أصناف عذابك يا الله، برحمتك يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

ينتقل البيان الكريم من الوعيد للمجرمين الضالين بما يستحقون من العذاب والطرد من رحمته سبحانه وتعالى إلى بيان حال المتقين عند ربهم الكريم العظيم ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فإن الذين اتصفوا بالتقوى، واجتهدوا في اتقاء ما يُغضب الله تعالى، واجتهدوا في طاعته عَزَّ وجل، بالسعي في رضاه، فإنهم في الآخرة ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: يسكنون في البساتين، وبين الأنهار، يتنعمون فيها. وقد بدأ وصف حال المتقين بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يفيد ثبوت ما سيكونون فيه من النعيم، وجاء السياق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٠)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٢/١٤)
(٣) المرجع السابق (٧٤/١٤)

على وجه التحقق، فلم يكن على صيغة المستقبل، بالرغم من أن هذا في الآخرة التي سيعودون إليها، فقد ورد الوصف لحالهم وكأنه قد تحقق، إمعاناً في التأكيد، والتشويق والاطماع والترغيب لهذا الإنسان بأن يكون من المتقين، فأعطى السياق قوة في تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز الدلالي، وأفاد النص الكريم عظمة منزلة المتقين التي يجب أن يتسابق لها المؤمنون. ومن جميل البيان أن وصف سبحانه وتعالى الأنهار بالعيون، وهي الينابيع التي ينبع منها الماء، ثم يجري كالنهر. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل[١] وفي ذكر العيون ما يدل على أن الأنهار منبثقة في جريانها من ينابيع متعددة، حيث جاء وصفها بصيغة الجمع ﴿وَعُيُونٍ﴾ الذي يفيد الكثرة والتعدد.

ثم يخبر الله تعالى بما يُسْتَقبَلُون به أولئك المتقون ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: ادخلوها سالمين من الآفات، وآمنين من النار، ومن كل خوف وفزع، فأنتم في سلام وأمن وأمان. وقد أفادت الباء في مطلع كلمة سلام ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ المصاحبة والملاصقة، بما يفيد تصاحبكم السلامة، فهي لصيقة بكم ومصاحبة لكم في جنات وعيون، فلن يصل إليكم ما يضادها أبداً، ولتفيد المبالغة في السلامة، وكذلك المبالغة في التطمين، وقوة الترحيب لهم من الملائكة المرحبة بهم. وجاء لفظ ﴿ءَامِنِينَ﴾ تأكيداً على حصول السلامة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ والأمن من أن ينالكم عذاب الله تعالى، وكذلك الأمن من الخروج من الجنات وما فيها من العيون والنعيم المقيم، وكذلك آمنين من الموت والخوف والمرض. فهي جامعة في دلالتها لخصال الأمن، وامتناع وقوع الخوف كلياً، حتى القليل منه.

ثم من مزيد نعيم الجنة تطهير القلوب مما هي عليه في الدنيا ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فإن من كرم الله تبارك وتعالى على المتقين أن نزع من قلوبهم البغض والضغائن، فلا يجد أهلها شيئاً في نفوسهم من البغض لأحد، مهما كان منه في الدنيا، ليحصلوا بذلك على كمال السعادة النفسية الداخلية في الجنة، مما يبين أن من سَلَّمَهُ اللهُ تعالى في الدنيا من البغض والحسد للناس، فقد نال شيئاً من نعيم الجنة. كما ورد البيان بصيغة الماضي في وصف حالهم ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ ليفيد تأكيد حصول المذكور، على أنه وصف قد حصل، وكذلك في البيان تصوير لحقيقة قادمة وكأنها تحققت، وتمثلت فيهم، فيعيش المتلقي تلك المشاعر وكأنه يعايشها، فيتمناها، ثم يجتهد في تحصيلها، وهذا من قوة البيان، وقوة الأسلوب في تحقيق مقاصده، مع براعة نظمه في وصف الحقيقة المقبلة والقادمة للمتقين.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢/١٠)

وهذا البيان من الله تعالى عظيم في وصفه وبيانه من كل وجه. فقد وصف الله تعالى إزالة الغل بدلالة النزع ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ وهو أخذ الشيء وقلعه، واستئصاله مما هو كائن فيه، فيستأصل سبحانه وتعالى من قلوب المتقين البغض الذي يكون في صدورهم في الدنيا. بما يفيد تطهير قلوبهم، ونظافتها من الحسد والكره، وجميع ما يحصل في النفس مما يؤثر على أمنها واستقرارها وطمأنينتها وسلامتها، فلا شيء يُكدر طيب عيشها في جنات النعيم عند الله اللطيف الرحيم. فتحصل بينهم أخوة مليئة بالمحبة ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ والأخوة تحمل دلالة المودة، وأن الوداد هو السائد بينهم. وفي هذا مدح وثناء لحالهم التي يكونون عليها، وفي هذا وصف لما يتميز به أهل الجنة من السعادة النفسية إضافة إلى السعادة الحسية: سمعاً ورؤية ومعايشة وتنعماً ومشاعراً، ويأكلون ويشربون ما يشتهون. بل ويجلسون ويتحدثون إلى بعضهم البعض في حب ووداد. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أنه لا ينظر بعظهم إلى قفا بعض، تواصلاً وتحاباً، وقال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاؤوا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر[١] فهم في اجتماعهم متقابلون في جلوسهم، بما يتحقق به كمال الأنس بينهم.

ثم يخبر الله تعالى أنه يمتنع عليهم وعنهم تحصيل المشقة والتعب ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ فلا يجدون في الجنة ما يحصل به المشقة والتعب، فليس هناك تكاليف يتكلف بها أهلها لتحصيل ما يريدون، بل يأتيهم ما يتمنون ويشتهون من غير عناء ولا جهد يبذلونه. فهم في نعيم خالص، ولذة محضة، فإذا اشتهى ما يريد جاءه كما يريدون تماماً، والصفة الثانية لهم: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أي: خالدون خلوداً دائماً، لا خروج لهم من الجنة، فإنه نعيم مقيم لا يزول ولا ينقص.

وبعد أن أتم الله تعالى البيان في حق المتقين من الثواب العظيم، يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بأن يُخبر عباده بعظيم مغفرته، وكثرتها وتواليها ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فيا أيها الرسول أخبر عبادي بأني كثير المغفرة لمن تاب واستغفر وأطاع، وكذلك أخبرهم عن عذابي ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ فإن عذابي لمن يلحق به فإنه عذاب شديد الإيلام. وفي هذا ترهيب وتحذير وتخويف بعد ترغيب وتحبيب لهم في الطاعة، وفي رجاء المغفرة، مما يبين التوازن في التوجيه الذي يتناسب مع ما طُبِع عليه الإنسان من الخوف والرجاء، لأن في الجمع بين الرجاء والخوف ما يحقق التوازن النفسي والسلوكي، فالرجاء من غير خوف مدعاة للتمادي في الانحراف، والخوف من غير أمل ورجاء، يحصل به اليأس الذي يدفع المذنب والعاصي للمزيد في الطغيان، لأنه لا يرى في إدراك المغفرة رجاء. وإنها لنعمة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)

من الله تعالى عظيمة في تربيته وتوجيهه ومعالجته لعباده، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتقين، الذين يخافون مقامه وينهون أنفسهم عن هواها، وأن يغفر لنا ويرحمنا تفضلاً من عنده تبارك وتعالى، إنه هو الغفور الرحيم.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى خبر ضيوف نبي الله ورسوله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يا أيها النبي أخبرهم وأعلمهم عن ضيف إبراهيم، وتفاصيل مجيئهم، وما حصل بذلك من الخير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإيقاع العذاب على المجرمين من قوم لوط، إنها التفاصيل التي لا يعرفونها، فكانت آية من آيات الله تعالى الدالة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اجتمع في هذا الحدث لأبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام مجموعة من المشاعر المتباينة، التي اجتمع فيها الاستغراب، والدهشة، والخوف، والسرور والرجاء، ومن جميل السياق القرآني الكريم أنه شد انتباه الْمُخَاطَب، بعدم التعريف بالضيف ابتداء، ليتشوق السامع والقارئ لمعرفة ذلك، وورد الضيف بصيغة المفرد، على أنه واحد، بالرغم من أنهم أكثر من واحد، ليفيد أن صفتهم واحدة، ولأن الضيف مصدر، فيجوز توحيده أو جمعه. وورد في اللغة أن أصل الضيف الميل، والضيف من مال إليك، نازلاً بك. وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يُجمع، ويُقال: أضياف، وضيوف، وضِيفان[1]

ثم تكرر تأخير التعريف بالضيوف، ليتناسب التأخير مع تسلسل الحدث، وليكون أكثر تشويقاً ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ فجملة ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ أفادت الزمن والوقت، أي: أنه حين دخل الضيوف على إبراهيم، كما ورد السياق بصيغة المفاجأة ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ فأدة ﴿ إِذْ ﴾ المفاجأة. أي: فاذكر لعبادي حين دخل الضيوف على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ فبدأ

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٠٠)

الضيوف بالسلام على المضيف لهم، وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ أي: سَلَّمْنا سَلاماً، ولم يذكر سبحانه وتعالى في هذا السياق رَدَّ إبراهيم عليهم السلام، بل طوى السياق ذلك، باعتبار أنه حاصل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وللمبادرة بإظهار قوة ما بعده من الدهشة ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ إي: إننا منكم خائفون، فزعون، وقد ورد الرد بصيغة الجمع، سواء من جهة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو من جهة الضيف، حيث أفادت كلمة ﴿ مِنكُمْ ﴾ تعدد الضيوف، بأنهم أكثر من واحد، وكذلك وصف قولهم له بالكثرة عندما سلموا عليه ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ فإن كلمة ﴿ فَقَالُواْ ﴾ تدل على الكثرة. كما أن كلمة ﴿ وَجِلُونَ ﴾ تدل على الجمع، لتفيد أن الخوف والفزع أصاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيره ممن في بيته، وهم أهله الذين كانوا في البيت، وهي زوجته، سارة، أم إسحاق عليهم السلام. وقد ورد السلام من إبراهيم على أضيافه في سورة الذاريات ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ مما يدل على أن السياق في القرآن الكريم عند إعادة ذكر القصة، فإنه يعيدها بما يناسب المراد من ذكرها، مع حذف الزيادة من وجه، والاختصار من وجه آخر، بما يناسب المراد والسياق، وليجد القارئ والسامع جديداً في التوجيه والبيان.

وأما الخوف الذي قال عنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ فلأنه عندما أدخلهم بيته، أسرع في إعداد الطعام، فأحضر لهم عجلاً حنيذاً، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم، وأنكر عليهم امتناعهم عن الأكل، وهو البيان الذي قد طوى السياق ذكرها هنا اكتفاء بما ورد من تفصيل لها في سورة هود. مما يؤكد ما سبق ذكره آنفاً عن علل الاختصار والزيادة حين إعادة ذكر القصة في القرآن الكريم. وهي ميزة بيانية، ومنقبة بلاغية. ومن أمثلة ذلك ما ورد في سورة الذاريات ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ والذي أفاد نكران حالهم، فحالهم غير معتادة، فربما رأى فيهم أمراً يخالف هيئة البشر، أو لأمر آخر لم يعرفه. مما يبين أن في كل سياق، وفي كل إعادة زيادة من الفوائد إذا تفحصها القارئ، والمستمع بما يجعله يدرك تلك القوة البيانية والبلاغية في تكرار القصص في القرآن الكريم.

فعندما صرح إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالخوف من أضيافه، ردوا عليه بقولهم ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي: لا تخف، ولا تفزع، وألحقوا تطمينهم له من عدم الخوف ببشارة ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي نبشرك ببشارة، بأن الله تعالى يرزقك بولد ذكر، وعالم. ومن دقائق البيان أنهم وصفوا نوع الْمُبَشَّر به، بأنه غلام، لأن الغلام يُطلق على الذكر، بينما الولد يشمل الأنثى والذكر، ووصفوه بعليم،

أي: عالم، بل متضلع في العلم لأن كلمة ﴿ عَلِيمٍ ﴾ من صيغ المبالغة، فأفادت أنه متضلع في العلم، لأن عليم من صيغ التكثير، التي أفادت أنه كثير العلم، بما يرزقه الله تعالى من العلم، وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. ولعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بدأ من هنا معرفتهم بأنهم ملائكة مُرسَلُون من عند الله رب العالمين، وهم: كما ذكرهم ابن جرير رحمه الله تعالى أنهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل[1]

فَرَدَّ عليهم خليل الله تعالى بما يفيد الاستغراب من هذه البشارة، وقد بلغ مرحلة متقدمة من العمر، حيث أصبح شيخاً كبيراً ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ أبشرتموني بالولد بعد أن لحق بي التقدم في السن الذي يمتنع معه تحصيل الولد. فبدأ كلامه صلى الله عليه وسلم بالتعجب ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ إنه استفهام يدل على الدهشة والتعجب والاستغراب، بدلالة انتفاء سبب حصول الولد، منه ومن زوجته، لبلوغهم سن الشيخوخة ﴿ عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ أبشرتموني بالولد وقد لحق بي تقدم السن الذي يمتنع معه تحصيل الولد، فكيف سأنجب ولداً وأنا في هذا السن، وزوجي مثلي.

وعبر عن كبر سنه بكلمة المس ﴿ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ التي تعني أصابني، والتصق بي الكبر، مما يدل على فقد الأمل، وانتفاء الأسباب، ثم أكد تعجبه بقوله للملائكة ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فبأي شيء تبشروني مع انتفاء الأسباب. ليعلم المؤمن أن الذي خلق الأسباب وأوجدها، قادر على تغير مسارها ومجراها وأثرها، فلا تقنط من رحمة الله تعالى أيها المؤمن، وليكون هذا عبرة ودروساً للمؤمنين. وهذا أكد لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أنهم ملائكة، فيكون سؤاله هو للتعجب، ولمعرفة كيفية حصول الولد المبشر به. وقد كشفت جملة ﴿ مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ تقدمه في السن، خاصة وأن لفظة ﴿ مَّسَّنِيَ ﴾ تفيد التمكن والالتصاق، فقد تمكن منه التقدم في السن الذي يمتنع بسببه حصول الولد. وهذه دقة قرآنية عالية في بيان حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فأجابت الملائكة عليهم السلام بقولهم ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: أخبرناك بالبشارة الحق والصدق اليقين، الذي ينتفي معه غيره مما يعارضه، فإن وعد الله تعالى حق وإن انتفت الأسباب، وأن الله تعالى لا يُخلف ما وعد به. فلا يستحيل مع أمره وإرادته سبحانه وتعالى شيء أبدا. ثم نهوه عن القنوط ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ أي: لا تكن من اليائسين، لأن القنوط هو اليأس. ولم يقولوا: لا تقنط، بل لا تكن

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٥/١٢)

من مجموعة القانطين، فتنظم إليهم، مما يدل على أن الأصل في نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه ليس من القانطين، فليس عنده قنوط البتة، فالقنوط منتفي عنه عليه الصلاة والسلام، ولذلك وجهوه توجيهاً تحذيراً، وليس على وجه الإثبات والحقيقة، ولذلك رَدَّ عليهم بما ينفي عنه القنوط أو أن في نفسه شيء من ذلك أبداً ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ فنفى عن نفسه القنوط بالأسلوب الذي يماثل صيغة نهيهم، حيث لم يقل: لست قانطاً، أو لم أقنط، بل وصف حال من اتصف بصفة القنوط بأنه من الضالين، وهذه براعة في الإجابة الموفقة من الله تعالى ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ فوصف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذين يقنطون من رحمة الله تعالى بأنهم ضالون، أي: المخطئون، المبتعدون عن الصواب وطريقه.

واستخدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلوب التقرير في جوابه، بأن القنوط من رحمة الله تعالى هو من صفة المبتعدين عن طريق الصواب والحق، واستخدم أسلوب الحصر للتأكيد ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ مما يفيد أن رحمة الله تعالى واسعة وعظيمة، فلا ييأس منها إلا المبتعدون عن الصواب وطريقه، وأن رجاء رحمة الله تعالى هي صفة أهل الاستقامة والحق والإيمان والتقوى، وأنها منزلة عظيمة، ومكانة رفيعة، كما أفاد الحديث بين إبراهيم والملائكة عليهم الصلاة والسلام أن الاندهاش لا يعني القنوط، لأن الاستغراب والاندهاش يمثل حالة شعورية تحصل عند المفاجأة، وعند حدوث الشيء مع انتفاء الأسباب، وأن رحمة الله تعالى لا تمنعها الأسباب إذا قَدَّرَها الله تعالى، وأن على المؤمن أن يكون متفائلاً برحمة ربه تبارك وتعالى، مهما كانت الموانع.

ثم بعد حصول الطمأنينة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام يتوجه بسؤاله للملائكة، عن شأن مجيئهم ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فما شأنكم أيها المرسلون من الله تعالى. وجملة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ تفيد السؤال عن الشأن العظيم الذي جاؤوا من أجله، فشعر بأن مجيئهم ليس إلا لأمر ذو شأن، فَعَظَّمَ شأن مجيئهم، لأن كلمة: الخطب تفيد الشأن العظيم، وعينهم في مخاطبتهم بالوظيفة التي يقومون بها، بأنهم رُسُل الله تعالى من السماء ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فما شأنكم يا من أرسلكم الله تعالى، واستخدم ياء المنادى ﴿أَيُّهَا ﴾ والتي تعني تخصيص المنادون، للاهتمام والتفخيم لمقامهم. فأجابت الملائكة الكرام على سؤال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ إي: أن الله عَزَّ وجل أرسلنا إلى قوم اتصفوا بالإجرام، والمجرم هو الذي لا ينزع إلى الحق، بل ينازع الحق، وينزع إلى الباطل. فكل من يُضاد أمر الله سبحانه وتعالى فقد ارتكب جرماً عظيماً، فاستحق به صفة الإجرام كاملة. فسموهم بالمجرمين، لعظيم جرمهم، وعظيم ما اكتسبوا به من الإثم، وعظيم عذاب الله تعالى لهم. فنسأل الله تعالى العافية والسلامة.

ويقصدون بالمجرمين قومَ لوط عليه الصلاة والسلام. واستثنوا من هذا العذاب آل لوط ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فإنهم مُرسلون بالعذب لقوم لوط عليه السلام، واستثنوا من هذا العذاب آل لوط، بأنهم ناجون جميعاً، وهم أتباعه وأهل دينه، فآل الرجل: أهله وعياله، وأتباعه وأنصاره، واستثنوا من آل لوط امرأته من النجاة ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فأخرجوها من النجاة من العذاب الذي سيصيب قوم لوط المجرمين، الذين كفروا به ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي: حكمنا ودبَّرنا أنها من الباقين في العذاب، لتكون من الهالكين، لأن الغابر، يعني الباقي، أي: من الباقين في العذاب. وقَدَّرَ الملائكة ذلك لأنهم مفوضون بإهلاك المجرمين، وحالها كان حال المجرمين من قوم لوط. مما يبين أن الله تعالى هو الذي يُنجي، وأن قرب امرأة لوط منه لم تغن عنها شيئاً، وأن الإنسان يؤخذ بذنبه وجرمه، وأن الكافر لا ينتفع بصلاح قريبه. فليس للإنسان إلا سعيه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

ثم تَفَرَّع عن خبر الملائكة مع إبراهيم عليهم الصلاة والسلام قصة هلاك قوم لوط، حيث انتقل السياق مباشرة إلى مجيء الملائكة إلى نبي الله لوط عليه السلام بعد أن كانوا عند رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فعندما جاءت الملائكة إلى رسول الله لوط عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فاستنكر لوط عليه السلام هيئة هؤلاء المرسلين من الملائكة.

وقد سماهم الله تعالى بالمرسلين، ليفيد أن معهم رسالة يؤدونها، وأنهم هم الذين يتواصلون مع أنبياء الله تعالى، وأنهم أمناء على ما يُرسلون به، وأن لديهم القدرة التي تمكنهم من أداء ما أرسلهم الله تعالى به. ولم يقتصر المجيء إلى لوط عليه السلام، بل ذُكِر المجيء لآل لوط، بما يفيد التشريف لهم جميعاً مع نبيهم عليه الصلاة والسلام. وجاء حديث الملائكة معه، وليس مع آل لوط، لأنه النبي والرسول، وهو الممثل لأتباعه من المؤمنين، وفي هذا احتفاء بلوط عليه الصلاة والسلام من وجه، واحتفاء بآل لوط من وجه آخر. وقد جاء المرسلون من الملائكة لإنجاء لوط عليه السلام، وآل لوط، وترتيب نجاتهم مع نبيهم، حتى تُلقي الملائكة العذاب على القوم المجرمين.

وتعجب لوط عليه الصلاة والسلام من صورة الملائكة، فلما جاء المرسلون إليه ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فاستنكر لوط عليه السلام هيئة هؤلاء المرسلين من الملائكة، فوصفهم بأنهم منكرون، أي: لا أعرفكم، قال القرطبي رحمه الله تعالى: قيل كانوا شباباً، ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنة قومه[١] وربما رأى من هيئتهم وثيابهم أنهم ليسوا ممن يعرفهم من الناس، فرد عليه المرسلون ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي: أتيناك بعذابهم الذي يشكون فيه، ويمترون في وقوعه بهم، والامتراء هو الشك ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي: وقد جئناك بالصدق الذي كانوا يشكون ويمترون من وقوعه بهم، وهو العذاب الشديد. فأتينا إليك أيها النبي والرسول بالأمر الذي لا شك ولا ريب في وقوعه بقومك المكذبين، وهو العذاب الشديد ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ وإنا لصادقون في إهلاكهم بالعذاب، ثم رتبوا لرسول الله لوط وأتباعه المؤمنين المخرج الذي يُبعدهم عن هذا العذاب الأليم ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ فاخرج بأهلك ليلاً، لأن السري يكون بالليل ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ ﴾ أي: اذهب أنت وأهلك بطائفة من الليل، وليكن سريك بأهلك آخر الليل، عندما ينقطع بعض أجزائه الأولى، فالقطع من الليل يعني الجزء الأخير من الليل.

ثم وجّهوه بأمر دقيق أثناء سريه وأهله ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أي: وسر خلفهم، حتى تذودهم، فلا يتخلف منهم أحد، وترعى مسيرهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ ولا تلتفتوا للمكان الذي أُمرتوا بمغادرته، وقد ورد الالتفات بصيغة المضارع، الذي أفاد استمرارية عدم الالتفات أثناء مسيركم ومغادرتكم المكان إلى وجهتكم الأخرى. أي: لا تلتفتوا إلى الجهة التي تغادرونها، وتمشون منها، فانشغلوا بما هو أمامكم عن الذي خلفكم، وشدوا

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٦)

في سيركم لبغيتكم، ولا تلتفتوا إلى خلفكم. قال مجاهد ومقاتل رحمهما الله تعالى عن معنى الالتفات، أي: الالتفات المعروف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتخلف منكم أحد[1] فاجتمعت الدلالتان في السياق، التي هي: عدم الالتفات للخلف، لما فيه من رؤية العذاب بقومهم، ولما فيه من التأخر في السير، وكذلك الدلالة الأخرى: بأن لا يتخلف منكم أحد، وتم استثناء امرأته من النجاة كما ورد سابقاً في قوله عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

ومن دقة التوجيه أن النهي عن الالتفات جاء قطعياً، ولو كان لأحد منهم، حتى لوط عليه الصلاة والسلام يشمله النهي، فيجب أن تمنعهم وتُحَذِّرهُم أيها النبي من ذلك، ولعل في هذا بيان وتوضيح لعلة وسبب أن يكون مسير لوط عليه السلام خلفهم، وهم أمامه، حيث قالوا ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ ثم وجهت الملائكة نبي الله لوط عليه السلام بأن يكون مسيره بقومه وفق ما تأمرهم به الملائكة ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ وسيروا في مسيركم حيث تأتيكم الأوامر بذلك، نحو الجهة المحددة لكم. وهنا لم تبين الملائكة الوجهة التي سيتوجهون إليها ابتداء، على أنها تأتي في وقتها عند الخروج، فيتم توجيههم من قِبَلِ الملائكة للوجهة المرادة، وقيل هي الشام، وقيل مصر، وقيل غير ذلك. مما يفيد أنه لا يلزم من القائد أن يخبر اتباعه بكل شأن، فقد يحتفظ بما يراه مناسباً، لأي علة يراها، وأن على اتباعه الطاعة، طالما أنه محل الثقة بينهم. وأن الإنسان مهما علا شأنه، فيلتزم بما يأمره به قائده، أو ولي أمره، طالما هو أمر مشروع. وورد فعل الأمر ﴿وَٱمْضُواْ ﴾ بصيغة المضارع، ليفيد متابعة المضي، والاستمرار فيه، وبإضافة ﴿ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ أعطى بياناً بعدم معرفتهم للمكان الذي يتوجهون إليه، وإنما يتبعون ما تأمرهم به الملائكة، إذ لو كان معروفاً ومعلوماً لديهم لقالت الملائكة: وامضوا حيث أُمرتم.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي: أوحينا إلى لوط، بما قضينا به ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ الذي هو إهلاك قومه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ فإن آخر شأن قومك هو استئصالهم صباح تلك الليلة، فإنهم هالكون عن آخرهم، بما يفيد أنه لن يبقى أحد منهم. وهو كناية عن عموم الاستئصال بالعذاب الذي لن يُبقى أحد منهم. فلن يصبحوا إلا وقد أهلكهم الله تعالى بالعذاب القاطع لهم تماماً. لأن دابر الشيء آخره.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١١/٤)

ثم يذكر تبارك وتعالى ما كان من قوم لوط عندما رأوا الملائكة عند نبي الله لوط عليه السلام في بيته ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فقدموا إلى لوط عليه الصلاة والسلام في بيته بمدينتهم سلوم، جهة فلسطين، ووصف الله تبارك وتعالى حال مجيء قومه له بأنهم ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ أي: أن نفوسهم متطلعة لعمل الفاحشة بأضيافه، كعادتهم الخبيثة التي اعتادوا عليها، مما يدل على أن الملائكة جاؤوا على صورة شُبَّان، وعلى قدر من الجمال، فطمع بهم القوم إلى درجة الاستبشار بتحصيل مرادهم، وهي صورة الأمل المقترن بالفرح والسرور من تحصيل مرادهم. وورد الفعل بصيغة المضارع ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ ليفيد المبالغة بالفرح، وتجدده في نفوسهم، وأملهم في تحقيق فعلهم ومرادهم. وكذلك جاء البيان بدلالة الكثرة ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ دليل على كثرة من جاؤوا، وبأنهم تجمعوا من أطراف مدينة سلوم، فمثلوا بكثرتهم أهل المدينة، وفي ذلك بيان على أن هذا الفعل منتشر بينهم إلى درجة تعميمه عليهم ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فأصبح أهل المدينة جميعهم يفعلون ذلك المنكر، ولا ينكرونه أبداً، وأن من يدخل مدينتهم لا يأمن على نفسه منهم.

وعند مقابلة قوم لوط لنبيهم لوط عليه الصلاة والسلام، تحدثوا معه عن مرادهم الذي استغنى البيان عن تفاصيله بكلمة ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ والتي جمعت بيان المراد والهدف، وسرعة المجيء، والاستعجال في الطلب، وطوت ذلك الفعل الخبيث في دلالتها ومعناها، مما يدل على غزارة البلاغة البيانية في القرآن الكريم، وإعجازه البياني، بالاستغناء عن حشو الكلام، وكذلك جاءت بأسلوب الرمز، دون التفاصيل، والتوسع في شرح المقصد والمراد، فحفظ الله تعالى بها أدب البيان، وأخلاق الحياء، مما يبين أهمية الحياء، وأهمية التورع والتَّنَزُّه عن ما يضاد الحياء في الكلام والألفاظ.

فانتقل البيان مباشرة إلى كلام لوط عليه السلام مع قومه في جملة هي غاية في طلب تحقيق الحياء، وعدم وضع رسولهم لوط عليه الصلاة والسلام في موضع الفضيحة ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ فيقرر لهم بأن هؤلاء ضيوفه، وأن الضيوف لهم من الإكرام والحماية والأمن والأمان ما يستوجب منهم الإقلاع عن مرادهم الشنيع. ثم يطلب منهم عدم وضعه في موضع الفضيحة ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ والفضيحة هي الأمر الذي تُنتَهك فيها الحرمات، كالاعتداء على الضيف بما لا يليق. وفي كلام لوط عليه السلام ما يدل على أنه لم يعرف أنهم ملائكة ذلك الوقت، لأنه لو عرف بأنهم ملائكة لعرف أنهم لن يصلوا إليهم بسوء، وأنهم قد أحلوا بأنفسهم العذاب العظيم. ثم أحالهم إلى موجبات الدين ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ فاتقوا الله في شأنهم، أي: خافوا الله تعالى في شأنهم، فحذرهم بعذاب الله تعالى، لعلهم يحذرون وينتهون، ثم أردف أمره وتخويفه لهم ببيان

ما يلحقه من الخزي والعار ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ فلا تضعوني في موضع الخزي الذي هو الإذلال المنافي للحياء والخجل، فلا تُلحقوا بي الفضيحة والإهانة في ضيفي، وتجعلوني في موقف الذي استحي منه، فيهلككم الله تعالى بمرادكم الشنيع. فإنها جملة معبرة عن عمق ما أصاب نبي الله تعالى من هول ما جاء له قومه، فتعاقب في أسلوبه إثارة جميع ما يمكن أن يمنعهم من مقصدهم ومرادهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ ثم قال لهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ مما يبين شدة ما أصابه من الهم والغم فيما أراده قومه من أضيافه، فأكد هذا السياق أن لوطاً حتى هذا الموقف لم يكن يعرف بأن ضيوفه ملائكة من عند الله تعالى، بل اعتقد أنهم أضياف من الناس، قد مروا بقريته، مما يدل على أنهم كانوا على هيئة بشر.

فرد عليه قومه بعد كل هذه المحاولات بسؤال تحذيري ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: ألم يسبق أن حذرناك بأن لا تتدخل ولا تكلمنا في شأن أي أحد من الناس، بل أوضحوا ذلك بقوة دلالة كلمة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ التي جمعت جميع أصناف الناس، والقبائل، والمارين، والمتاجرين، وغيرهم من الناس، على اختلاف مللهم ونحلهم. مما يفيد أن لوطاً عليه السلام كان يعظهم وينهاهم كثيراً، ويجتهد في حماية الناس منهم، حتى أجمعوا عليه بأن يمتنع عن ذلك، مما يوضح أنهم هددوه سابقاً من أن ينهاهم عن فعلهم، أو أن يجير أحداً، فتستوجب حمايته منهم. مما يدل على شدة ما كان يواجه عليه الصلاة والسلام من قومه، وشدة طغيانهم، وانتزاع الحياء من عقولهم وقلوبهم. مما يفيد أن ذهاب الحياء من الإنسان يقوده إلى المجاهرة بالمعصية، والمناداة بتسويقها، ومحاربة ومعاداة من ينهى عنها.

ثم يرشدهم لوط عليه السلام إلى ما هو خير وأحسن ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ فقد وجههم إلى الزواج من بناته، والمقصود بناته: نساء أمته، ذكره ابن جرير[١] وقال القرطبي: عن مجاهد وسعيد بن جبير: أشار بقوله ﴿بَنَاتِيٓ﴾ إلى النساء جملة، إذ نبي القوم أب لهم، ويقوي هذا قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم) وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة، ولم يرد امضاءه. وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته، ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا[٢] وجميع الأوجه محل احتمال، ولا تعارض بينها. وهو مخرج للوط عليه السلام من كل الأوجه المذكورة. أي: فهؤلاء

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٢/١٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥١/٩)

بناتي تزوجوهن إن كنتم عازمين على مرادكم من ضيوفي، فهن خير لكم وأطهر، ولا تذهبوا إلى الحرام، وما يتحقق به العار والخزي والعذاب من الله تعالى. فالمراد هو إرشادهم إلى الحلال، ليستغنوا به عن الحرام.

فأخبر الله تعالى بانعدام الفائدة من نصحهم وتوجيههم للحق وللبديل الطاهر، بالزواج من بناته، أو بنات قومهم، فوصف حالهم بأدق ما يكون الوصف ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ إنهم يتحيرون ويتخبطون في سكرة الفاحشة وضلالتها التي نأت بهم عن الحق والرشاد. وقد وجه الخطاب سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان عمق ولعهم بالفاحشة التي جعلتهم يتحيرون ويتخبطون في سكرتها وضلالتها حتى أبعدتهم عن الحق والفطرة السليمة، فبلغ بهم الأمر أنهم لا يبالون بحرمات الضيف وحقوقه، مما يبين أن الولع بالشيء قد يجعل الإنسان في سكرة منه، حتى لا يبالي بغيره، وفي هذا بيان للمخاطبين بأهمية الانتباه إلى ذلك الأمر، والحذر من سكرة الهوى، والتي أفادت المبالغة فيما هم فيه من شغفهم بالفعل الشنيع. حتى إنهم من قوة سكرتهم في فعلهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون ويتحيرون ويتخبطون في أمرهم هذا، وكأنهم في عمى عن الحق والرشاد، فلا يبصرون الحق المبين الواضح، فافتعلوا العمى والتغافل بأنفسهم عن الحق والرشاد. وكلمة ﴿يَعْمَهُونَ ﴾ فعل مضارع مستمر، يدل على استمرارية حال ذهولهم عن الحق والصواب، لأن الفعل المضارع يدل على استمرار الصفة فيهم ذلك الوقت.

ومن دلالة ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ أنها قسم من الله تعالى، ولله عَزَّ وجل أن يقسم بما يشاء، فقد أقسم بعمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3] مما يدل على منزلة ومكانة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، مما يوجب على من اتبعه اجلاله، وتقدير هذه المكانة الرفيعة.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٥/٢)

(2) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩١/١٤)

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٥/٢)

ومن مزيد فوائد الآية الكريمة: أن هناك قولان في المقصود ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أحدهما: أنهم قوم لوط، قاله الأكثرون. والثاني: قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قاله عطاء رحمه الله تعالى(١) وبناء على ذلك يمكن القول أن المقصود بهم قوم لوط، على أن قومك أيها النبي في شركهم يعمهون كما كان قوم لوط يعمهون في فعل الفاحشة، فمن ولعهم بشركهم أصبحوا في سكرت الشرك يترددون ويتحيرون، فكأنهم في عمى عن الحق والرشاد، كما هو حال قوم لوط في سكرتهم. مما يفيد أن كل من ولع بشيء من الباطل فإنه يتوه فيه، ويتردد ويتحير في أمره هذا، وكأنه في عمى عن الحق والرشد، فلا يبصر الحق المبين، فافتعلوا بأنفسهم العمى والتغافل عن الحق والرشاد.

ثم جاءهم العذاب صبيحة تلك النصيحة والموعظة والتحذير لهم من نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ فأخذتهم صيحة العذاب وقت الشروق، فقد صبحهم الله تعالى بالعذاب مع شروق الشمس، وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، أي: فجاءهم الصوت القاصف عن شروق الشمس، وهو طلوعها، مع رفع قريتهم إلى عنان السماء ثم قلبها(٢) ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فقد رفع الله تعالى قريتهم، فجعل عالي أرضهم سافلها، وأمطر الله تعالى عليهم حجارة من طين.

ثم يخبر الله تعالى بما يجب أن يعتبر به المعتبرون ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ فإن الذي فعلنا بقوم لوط من العذاب المهين الشديد لعبرة للمعتبرين ﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ فإن ذلك ليس آية واحدة، بل جاءت بصيغة الجمع ﴿ لَأَيَـٰتٍ ﴾ لعلامات وأدلة وحجج وبراهين ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمعتبرين المتفكرين، المتأملين الناظرين في الأمر، قال مجاهد رحمه الله تعالى: للمتفرّسين. وعن قتادة رحمه الله تعالى: للمعتبرين، وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اتقوا فراسة المؤمن، فإن المؤمن ينظر بنور الله)(٣) قال ابن زيد رحمه الله تعالى: المتفكرون والمعتبرون الذين يتوسمون الأشياء، ويتفكرون فيها، ويعتبرون(٤) فمن بلاغة موقع كلمة ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ في سياق الجملة أنها جمعت تلك الدلالات التي تعطي معنى النظر والتأمل لأخذ العبرة، والتفكر فيما يجب أن يكون عليه العاقل مما جاءه من الهدى عن الله تعالى،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٩٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٧٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٩٤-٩٦)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٩٧)

بما يفيد أن الإنسان المتوسم هو الذي لا تفوت عليه الأحداث فواتاً، بل يأخذ منها العبر، ويسترشد بها، استرشاد العاقل المتفكر. فما أبلغها من كلمة، وأجوده من معنى، وأغزره من علم وفوائد ودلالات عظيمة.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي: وإن قرية قوم لوط، التي هي سِدُوم على طريق واضح لمن يمر بها، غير خاف مكانها، وغير خافية عبرتها لمن اعتبر، فإنها لبطريق مقيم ثابت لا يتغير، فآثارها باقية، بجهة فلسطين. وقد أكدها تبارك وتعالى بنون التوكيد الملتصقة بضمير الهاء العائد على مدينتهم سدوم ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ وهي بسبيل أي: بطريق ومكان ﴿ مُّقِيمٍ ﴾ لا يتغير، والمقيم هو النازل في مكان، قائم فيه، فلم تتغير آثارها، فهي واضحة لكم يا من بُعِث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وفي إثبات بقائها طيلة تلك القرون آية في حد ذاتها، ولذلك وصف الله تعالى قوم لوط وأحداثهم بصيغة الجمع ﴿ لَآيَـٰتٍ ﴾ لكثرت الآيات فيها، فمنها بقاء آثارهم، وهذه آية، وآثار الصيحة على الأرض، وهذه آية، وهي أرض كبريتية، وهذا دليل وآية، إذ تدل على قوة الحجارة المتتالية التي قُذِفُوا بها. لأن من معاني ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ أي: النحاس[١]

ثم يؤكد الله تعالى أن فيها آية للمؤمنين ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهي آية برهان، وحجة، ودليل للمؤمنين، بأن جميع ما فيها من الآيات تشكل للمؤمن آية على قدرة الله تعالى، فقد ذكر الله تعالى الآية هنا مفردة، وفي الآية التي قبل السابقة بصيغة الجمع ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ففي الآية المفردة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يخاطب بها سبحانه وتعالى المؤمنين، فإن مجموع الآيات التي في القصة تشكل لهم آية، لأنها تأكيد لإيمانهم الذي آمنوا به. ولأن كل ما فيها من الآيات يعطي دلالة واحدة، هي الإيمان بالله تعالى، فتتفق جميع الآيات مع إيمانهم الواحد الشامل لأركانه، فهي تأكيد لإيمانهم، في حين أن قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ تتناسب مع أنواع المتوسمين، وقدراتهم في التبصر، ففيها آيات وحجج عديدة الأوجه، تتناسب وتستوعبهم، وتستوعب جميع قدراتهم، فلا تضيق بهم أبداً، فهي تُشكل للمؤمنين وغير المؤمنين آيات، إذ أن تفاصيلها آيات متعددة لأوجه مختلفة، يعضد بعضها بعضا، فيتأملها غير المؤمن من كل وجه، فيجد فيها دلالات عظيمة يعضد بعضها بعضا، فتدل جميعها على أن الخالق هو الله تعالى وحده لا شريك له، وأن عند الله تعالى عذاب شديد، يسلطه على الطغاة المتكبرين المتجبرين، وأن قدرته أعظم من أن يتصورها المخلوق، وأن عقابه أليم وسريع وقوي، قد يقع على من كفر برسوله صلى الله عليه وسلم كما وقع على من كفروا بأنبيائهم من قبل، ومنهم قوم لوط. وقد اشتملت الآيتين الكريمتين على وحدة المشار إليهم في اسم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٥٥)

الإشارة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ ليدل على وحدة موضع الاعتبار. واختلاف اعتبار المؤمن الذي يزداد إيمانه بتلك الآيات إيماناً وتأكيداً، وأما غير المؤمن فتُثبِت له تلك الآيات خطأ كفره، ووجوب إيمانه، ولزوم تصحيح اعتقاده وتصوره.

﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يذكر تبارك وتعالى قصتين متتاليتين بإيجاز لطيف، عطفاً على قوم لوط لتشابههم في الكفر، وفي ذلك تنبيه وإيقاظ لفكر قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكل كافر يمر بديار أولئك الكفرة المعاندين، أو تأتيه أخبارهم ﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام، أي: أهل مدين، الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى وبرسولهم عليه الصلاة والسلام، فاستحقوا صفة الظلم، إذ بكفرهم هذا ظلموا أنفسهم، وظلموا رسولهم بتكذيبهم له، وظلموا الحق، وظلموا آيات الله تعالى وحججه بعدم الإيمان بها، فكانوا مثل قوم لوط بكفرهم هذا. وقد نسبهم الله تعالى إلى صفة بلدتهم التي يكثر فيها الشجر الملتف، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والأيكة الشجر الملتف المجتمع[١] مما يدل على النعمة التي كانوا فيها، لأن كثرة الشجر دلالة على كثرة المياه، وسهولة تحصيله، مع كثرة المطر الذي يزداد به منسوب الماء. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أن نبي الله تعالى شعيباً هو بن ميكيل بن يشجر، وتطلق مَدْيَن على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة[٢] قال قتادة: مدين: ماء، كان عليه قوم شعيب، وقال: مدين هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه[٣] قال الزجاج: معنى ﴿ وَإِن ﴾ واللام ﴿ لَظَٰلِمِينَ ﴾ للتوكيد[٤] مما يفيد توكيد كفرهم وعنادهم للحق.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٩/١٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤١/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٥/٣)

(٤) المرجع السابق (٣٠٠/٤)

فانتقم الله تعالى منهم بإهلاكهم ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: فأهلكهم الله تعالى، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فانتقم الله منهم بالصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: طريق مبين[١] أي: طريق ظاهر واضح لمن يمر بهم. والإمام، اسم لما يؤتم به، فسمي به الطريق[٢] لأن المسافر يأتم ويستدل به على وجهته. واسم الإشارة للمثنى ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي: قوم لوط، وقوم شعيب. ويقال للطريق إمام، لأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده. وقال ابن الأنباري: ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني لوطاً وشعيباً لبطريق من الحق يؤتم به[٣]

فشملت جملة ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ دلالتين متعاضدتين ومتوافقتين: دلالة الطريق الظاهر لكل من يمر به، وكذلك دلالة: منهج وطريق الرسولين الكريمين لوط وشعيب عليهما السلام، بأنه واضح وظاهر بالحق الذي لا لبس ولا غموض ولا شك فيه، فإنه خال من كل ما يمنعهم من الاستجابة له. وفي هذا قوة بلاغية وإعجاز بياني، بأن أعطى النص الكريم الدلالتين معاً، وبلفظ واحد، من غير حاجة للإعادة، وكثرة التفصيل. ويستفاد من ذلك: كما أن قوم لوط وقوم شعيب على طريق من حيث المكان الواضح الذي لا لبس فيه، وكذلك أن ما جاءهم من البينات على لسان رسوليهم واضح الحق، ولا لبس فيه.

ثم ذكر تبارك وتعالى قوم أصحاب الحجر، الذين هم قوم صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فإن أصحاب الحجر الذين هم قوم ثمود كذبوا رسولهم صالحاً عليه الصلاة والسلام، ونسبهم الله تعالى لصفة مكانهم ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ﴾ مما يدل على مزيته التي أظهرته عن غيره من الأمكنة. قال الراغب: وسُمي ما أحيط به الحجارة حجرا، وبه سمي حجر الكعبة، وديار ثمود[٤] مما يدل على منعته، سواء كان بحجارة مرصوصة، أو بأرض حجرية قد أحاطت ببلدتهم.

وذكر سبحانه وتعالى أنهم كذبوا بالمرسلين ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فكلمة ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ جمع رسول، بينما الذي جاءهم رسول واحد، هو صالح عليه الصلاة والسلام، قال ابن كثير

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٧٦)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٢/٥٧٣)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٠٠)
(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٠٨)

وغيره من المفسرين رحمهم الله تعالى عن الجمع في كلمة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أنه من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين[١] فقد كذبوا نبيهم صالحاً مع كثرة الآيات التي أتاهم بها ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ فكلمة ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ تدل على الجمع والكثرة، مما يدل على كثرة الآيات وتعددها، قال القرطبي رحمه الله تعالى: والمراد الناقة، وكان فيها آيات جمة: خروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظمها حتى لا تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعاً، ويُحتمل أنه كان لصالح عليه السلام آيات أُخر سوى الناقة، كالبئر وغيره[٢] ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ فلم يعتبروا بتلك الآيات المتعددة، فصدوا عنها، بل عقروا الناقة، تمادياً في الإعراض والصدود. مما يدل على شدة عنادهم، وتشابه أهل الكفر في ردهم للحق.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما أنعم به عليهم، من توفيقه وهدايته لهم بنحت الجبال، حتى سكنوا فيها ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ والنحت في كلام العرب هو: البري، والنَّجر[٣] فيجوفون الصخر، فيعملون له مداخل، وغرف، حتى يصبح بيتاً للسكنة. فالهدف من النحت، هو اتخاذ البيوت للسكنى ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ ثم ذكر سبحانه وتعالى صفة البيوت التي اتخذوها، بأنهم أصبحوا فيها ﴿ءَامِنِينَ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: لوثاقة البيوت، واستحكامها من أن تتهدم، ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص، ومن الأعداء، وحوادث الدهر، أو آمنين من عذاب الله تعالى، يحسبون الجبال تحميهم منه[٤] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى ثلاثة أقوال في معناها: آمنين أن تقع عليهم، وآمنين من خرابها، ومن عذاب الله عَزَّ وجل[٥] فجمعت كلمة ﴿ءَامِنِينَ﴾ الدلالات المتعاضدة غير المتعارضة، والتي اتسعت لجميع مشاعرهم، ولكل ما يشعرون به من قوة تلك البيوت التي وفقهم الله تعالى وهداهم لاتخاذها، ليبين فضل الله تعالى عليهم، ومع هذا بطروا وتكبروا وكفروا بالله تعالى وبرسوله. وفي إبراز صفة الأمان في بيوتهم ما يدل على نعمة الأمن والأمان، وأنها نعمة قد تحققت لهم بفضل الله تعالى لهم، وهدايتهم لاتخاذها.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٦/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٥/١٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٦/١٠)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٥٧٣/٢)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠١/٤)

ثم يخبر الله تعالى أن بيوتهم الآمنة لم تغن عنهم شيئاً من عذابه ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾ وأورد تبارك وتعالى نوع عذابهم بأنه بالصيحة. ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن الصيحة والصياح واحد، قيل: صيحة جبريل، وقيل صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا[١] وقد بين تبارك وتعالى وقت تلك الصيحة، بأنها وقت دخول الصباح ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾ فلم تغن وتمنع عنهم تلك البيوت عذاب الله تعالى حين حل بهم، بالرغم من قوتها ﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فجميع ما كسبوه من مال، وقوة، وقدرة، واتخاذ البيوت الآمنة، لم يمنعهم من عذاب الله تعالى. مما يبين أن إرادة الله تعالى لا يمنعها سبب ولا حائل ولا مانع، مهما عظمت في عين العباد، فكل ما في الكون تحت سلطته وسلطانه سبحانه وتعالى، فلا يخرج شيء عن إرادته، ولا يمتنع شيء عن مراده ومشيئته، فكل شيء طواعية له جَلَّ جلاله.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظمة قدرة الله تعالى، وعلو سلطانه، وكمال عدله وإنصافه، وأنه هو الذي أعطى وخلق. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ فما خلق الله تعالى الخلائق كلها، سماءها وأرضها، وما فيهما وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور[٢] وذلك بما اقتضته مشيئته وحكمته سبحانه وتعالى. بما يفيد نفي العبث، وإثبات الهدف والغاية في خلقه لجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى. ليدرك العباد أن هناك هدف وغاية يجب تحقيقها، وأن وجودهم هو لغاية وهدف، وهو عبادة ربهم تبارك وتعالى. وأن يعرفوا بذلك عظمة خالقهم، وعظمة تدبيره عَزَّ وجل.

ثم عطف على ذلك البيان وعده عَزَّ وجل بقيام الساعة، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ ﴾ وإن القيامة لآتية، فيجازي سبحانه وتعالى كل بعمله، ويتحقق به الحق والعدل، وفي هذا ترهيب ووعيد وتحذير للمكذبين ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ فأعرض أيها النبي صلى الله عليه وسلم عن الذين يكذبونك، وينكرون نبوتك، وتعامل في إعراضك عنهم بالصفح الجميل، الخالي من الفحش والجزع، فتجاوز عنهم واصفح صفحاً متصفاً بأطيب أنواع الصفح. وقال جماعة من أهل التأويل، هذه الآية منسوخة، قال قتادة رحمه الله تعالى: ثم نسخ ذلك بعد. وعن مجاهد رحمه الله تعالى، قال: هذا قبل القتال، وعن سفيان بن عيينة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٥/١٤)

قال: كان هذا قبل أن ينزل الجهاد[1] مما يدل على التدرج في التعامل، وأن الإسلام قائم على التسامح في دعوة الناس، فلما ظهر العداء من الكافرين بمحاربتهم لدين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، جاء الجهاد في سبيل الله تعالى.

ثم يذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين موجبات الصفح، بأنه هو الذي خلق العباد، وهو العليم بهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو الذي خلقهم، وخلق كل شيء، وهو عالم بكم وبهم وبتدبيرهم، فلا يخفى عليه شيء، وهو العالم بعلة ما أمركم به من الصفح. ومن جماليات البيان ودقائقه العظيمة، أن الله تبارك وتعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه هو ربه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ بما يفيد هو الذي رباك وهيأك، وهو الذي يتولى أمرك، وهو الذي يعزك، ويرفعك وينصرك على من بغى عليك، وهو الذي يتولى أمرك، فلا تخشى شيئاً من صفحك لهم، وصبرك عليهم، ومؤكداً ذلك بأنه هو الخلاق ﴿ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ فهو الذي خلقك، وهو الذي خلق كل شيء، فهو الذي يدبر خلقه، ويحكم فيهم بما يشاء، بل وردت ﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد كثرة ما خلق من الخلق، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يدبر أمرهم وأمرك، فاطمئن بما تؤمر به، فإن لله تعالى حكمة فيما يأمر به وينهى عنه. مما يفيد أهمية تطمين المأمور بما أُمر به، وأن ذلك يعزز الطمأنينة لديه، كما أن في ذلك بيان بأن الله تعالى حكيم، إذ يتعامل مع عباده بحكمة بالغة، لأنه العليم بهم، وبما يصلحهم. بل وأضاف تبارك وتعالى إلى كونه ﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ أضاف العلم والإحاطة ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وهي كذلك من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فسبحان الله العظيم، فليس شيء إلا يعلمه عزَّ وجل، ويعلم به قبل أن يكون، وكيف سيكون، وماذا سيكون عندما يكون. فسبحان الله الخلاق العليم العظيم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا
مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ
أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾
عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾

(١) المرجع السابق (١٤/١٠٦-١٠٧)

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه هو الذي خلق العباد، وخلق كل شيء، وهو العليم والمحيط بهم، فلا يخفى عليه شيء منهم أبداً، خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بدلالة الربوبية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ بما يفيد هو الذي رباك وهيأك، وهو الذي يتولى أمرك، ويعزك، ويرفعك وينصرك على من بغى عليك، وأنه هو الذي يتولى أمرك، فلا تخشى من صفحك لهم، وصبرك عليهم. ثم ينتقل البيان الرباني إلى ما امتن به على نبيه صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ وفي هذا رد وجواب لمن كفر ولم يؤمن بأن الله عَزَّ وجل هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم، وخص من سوره السبع لمثاني بالذكر ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ لبيان خصوصيتها ومنزلتها من بين غيرها. وابتدأت الآية الكريمة بدلالة العطاء ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ ﴾ فإن هذا العطاء من الله تعالى، الذي خصك به أيها النبي من بين خلقه ما يفيد تخصيص التكريم والمعية والنصرة بهذا العطاء، والذي أفاد عظيم التكريم والثناء في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وورد هذا العطاء مسبوقاً بأداة ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ التي أفادت أنه قد تحقق وتأكد العطاء لك أيها النبي، بأن أنزل الله تعالى عليك القرآن الكريم، ومنه السبع المثاني ﴿ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ والسبع المثاني هي سورة الفاتحة، التي تصدرت سور القرآن العظيم، وهي سبع آيات، وقيل هي السبع السور الأولى الطِّوال من القرآن العظيم. وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وكانوا يرون الأنفال وبراءة سورة واحدة[1] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال بالصواب: قول من قال: هن آيات أم الكتاب، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] فعن أبي سعيد بن المعالى أن رسول الله

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٠٧-١١٥) وابن الجوزي، زاد المسير (٤/٣٠٢-٣٠٣)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٢١)

صلى الله عليه وسلم دعاه، وقال له (لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيته)[١]

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فهذا نص في أن الفاتحة: السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع السور الطُّول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه. وهو القرآن العظيم أيضاً. كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سُئل عن المسجد الذي أُسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فالتخصيص كمال مدح وثناء، ولا يمنع اشتراك غيره معه. فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم[٢] وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهم، أنه قال في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: هي فاتحة الكتاب، فقرأها عليَّ ستاً، ثم قال ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ الآية السابعة. قال سعيد: وقرأها ابن عباس عليَّ كما قرأتها عليك، ثم قال: الآية السابعة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ فقال ابن عباس: قد أخرجها الله لكم، وما أخرجها لأحد قبلكم[٣] مما يفيد عظيم سورة الفاتحة. وأن الأصل هو: أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة.

ومن دلالات ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ تكرار قراءتها في الصلاة، فتتكرر قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة، وتعني أيضاً الثناء، وتعني اشتمالها على الثناء على الله تعالى من حمده وتوحيده، وربوبيته وألوهيته، ورحمته وقدرته وسلطانه، وهدايته، وعفوه ومغفرته. ويفيد البيان أنها استثناء من الله تعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد خصهم بها، كما سبق بيانه، وذكره ابن عباس رضي الله عنهما. وأما إن شملت صفة المثاني القرآن كله فلأنه يتكرر فيه الثناء على الله تعالى، وكذلك ذكر الجنة والنار، والثواب والعقاب، والقصص والمواعظ والأخلاق والآداب، والواجبات، والنهي عن المحرمات، وكثرة التفصيل والبيان. وهذا من عظمة البيان في القرآن الكريم، من أن التخصيص بتعظيم سورة الفاتحة لا ينفي العظمة عن غيرها من سور وآيات القرآن، وهذا من قوة البيان، بل من الإعجاز البياني الذي يجمع به النص الكريم الدلالات المتعاضدة معه.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٨٩/٣) برقم (٤٤٧٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٨/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٤/١٤-١١٥)

ثم عطف تبارك وتعالى القرآن العظيم على السبع المثاني ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ بمعنى: ولقد آتيناك سبع آيات من القرآن، وهي الفاتحة، وكذلك ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ أي: وسائر القرآن العظيم، وقد وصفه عَزَّ وجل بالعظيم ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ فسائر الكتاب عظيم، ليتبين وليفهم الْمُخَاطَب بأن الفاتحة هي من هذا العظيم، وأن تخصيص الفاتحة، بالسبع المثاني، لا يعني إلا زيادة فضل، وإلا فإن الكتاب الذي أنزله تبارك وتعالى كله عظيم، وكلمة ﴿ ٱلْعَظِيمَ ﴾ تدل على الاستغراق، باستيفاء جميع صفات العظمة ولوازمها، واحتواء الموصوف لكمال العظمة والتعظيم، مما يستوجب تعظيم القرآن العظيم، من كل وجه، وفي كل هيئة يكون فيها المسلم مع القرآن العظيم، فتعظيمه يكون عند قراءته، وعند حمله، وعند سماعه وبيانه. فالقرآن العظيم: عظيم في اتساع بيانه ومعانيه وأحكامه، وأمره ونواهيه، وقصصه وأمثاله، وعظيم لأنه كلام الله تعالى، وعظيم لأنه منزل من العلو على خير البشر، ونزل به جبريل عليه السلام، وعظيم لعظيم ثواب قارئه، وعظيم لعظمة هدايته، فهو يهدي إلى طاعة الله تعالى، الموصلة إلى سعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى نعمة القرآن العظيمة، وعظمة القرآن وجلالة قدره، يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى مبدأ وقاعدة عظيمة في التعامل مع زينة الحياة الدنيا، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلما كانت الدنيا مليئة بالملذات، وما كان الناس فيه من التجارة والمال، ورحلة الشتاء وصيف، فإن الله تعالى وجَّهَ نبيه عليه الصلاة والسلام إلى قاعدة جليلة: بعدم الالتفات إلى بهرجة الدنيا، وإلى ما مَتَّعَ اللهُ به عبادَه من اليهود والمشركين، فلا ترغب في الدنيا، وقد أغنيتك بالقرآن عما في أيدي غيرك من متاع الدنيا الفاني. ولتكن الرغبة في متاع الآخرة الدائم.

وقد انطلق التوجيه الكريم بالنهي ﴿ لَا تَمُدَّنَّ ﴾ والتي تفيد الأمر بالامتناع، وعدم التطلع، كما أوقع النهي على إرادة العين ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ فهي مصدر الرؤية، والمشاهدة، والمعاينة للأشياء، وهي الناقلة لصورة ما يعجب الإنسان، وهي المعبرة عن التشوف والإعجاب والتمني، فأعطت مساحة كبيرة وواسعة في الدلالة، لتتجاوز بها موقع النظر والمنظور إلى التطلع والتمني، والانشغال الفكري بما رأى، فهي غاية في البلاغة البيانية. بل ومن عذوبة البيان ودقته أن أوقع النهي عن الامتداد للنظر، وليس على حصول النظر، فإن حصول النظر واقع لكل ما يمكن مشاهدته، ولكن ﴿ لَا تَمُدَّنَّ ﴾ لا يمتد النظر، ويستغرق بالمداومة، والتأمل بإعجاب ورغبة وتمني لها. وإن كان التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو نهي لأمته عن الانشغال بما انشغل به

الكفار من زينة الدنيا عن الآخرة، مما يفيد بأن لا يستغرق المؤمن في فتن الدنيا، بل يستغرق في أمور الآخرة، فلا يُغَلِّب زينة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، كما يفيد ذلك التنبيه للمؤمن عن حدود النظر، وأنه بالاستغراق في المفاتن قد يأخذه عن الحق، ويشغله بما لا نفع فيه، أو يتمنى به ما عند صاحبه، من مال، أو مجد، أو مكانة ومنزلة.

وأما موقع النظر فهو ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: الأغنياء، الأمثال، الأشباه[1] والأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة رحمه الله تعالى. وقال الجوهري رحمه الله تعالى: الأزواج القرناء، قال الواحدي رحمه الله تعالى: إنما يكون ما دام عينه على الشيء، إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه[2] مما يفيد أن لا تطمع فيما أنعم الله تعالى به على غيرك، وتترقبه، وتتشوف له، وتتابعه، فينشغل قلب المؤمن بما ليس له، عما هو له، وعن آخرته بزينة الدنيا. ومن دقائق النص الكريم أن الله تعالى نسب ما هم فيه من نعمة له عَزَّ وجل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا﴾ فالذي مَتَّعهم هو الله تبارك وتعالى بتلك النِّعَم. ولكن استخدموها في الترفع عن الحق. ثم يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في جانب قلبي هو غاية في الأهمية، لمن كان له حِرص على الناس بالإسلام والإيمان ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، ولا تحزن عليهم بما أنعم الله تعالى به عليهم في الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون. لتكون قاعدة لكل مؤمن يدعوا إلى الله تعالى، بأن لا يحزن على من بلغته الدعوة وأصر على الكفر، أو على المعاصي. ولا يُشغل قلبه بما يدفعه للألم والحزن، مخافة عليهم من العذاب، ورغبة لهم في الخير، مما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل هم الخوف عليهم، مع الحرص الشديد على إسلامهم، فيدفعه حرصه عليهم إلى كثرة دعوتهم، وترغيبهم في دين الله تعالى، وتحمله لأذاهم صلى الله عليه وسلم.

ومقابل هذا النهي يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى منهجية التعامل مع المؤمنين ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: تواضع للمؤمنين، بليونة الجانب لهم، والترفق بهم. وسمى الله تعالى التعامل بالجناح، وجناح الإنسان جانباه، وهو صورة للتعامل المتصف بالتواضع، وكذلك هو كناية عن الترفق والتواضع لهم. وفي التوجيه بخفض الجناح: تماثل لفعل الطائر عند نزوله إلى مكانه، فيخفض جناحيه عند الهبوط، وعند احتواء صغاره، حيث يخفض جناحيه عليهم، وكذلك عند حفظ بيضه، إذ يُلملمه تحت جناحيه، فهي الصورة التي تعطي دلالة التغطية لهم بالتواضع، والنزول لهم، والاحتفاء والعناية بهم، والصبر عليهم، والمحافظة عليهم كما يحفظ الطير صغاره. ليتبين أن خفض الجناح هو صورة بلاغية، متعاظمة في دلالتها، ورحابة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٨/١٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١٤٢/٣)

بيانها وسعة مساحتها، لتستوعب جميع حالات الالتفاف على الغير والاستيعاب لهم، والتواضع، والرحمة مع الحكمة في التعامل الذي يجمعهم ولا يفرقهم. فهي قاعدة عن كيفية احتواء الأعوان والإخوان، والمرؤوسين، والأصدقاء، والأقارب، وزملاء العمل والمهنة، فإنها وسيلة وغاية معبرة عن احتواء الآخرين.

ولتعطي كذلك منهجية للمؤمن عن كيفية التعامل مع المؤمنين، وإذا كان هذا النبي الكريم، والرسول الأمين صلى الله عليه وسلم يأمره رَبُّهُ تبارك وتعالى بخفض الجناح للمؤمنين، فإنه من باب أولى أن يكون بين المؤمنين ذلك الْخُلُق العظيم، فهو من أوجب الواجبات أن يخفض المؤمن جناحه لإخوانه المؤمنين الذين يتعامل معهم. بل جاء التوجيه الكريم من الله تعالى بصيغة الأمر ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ليفيد الوجوب. كما أن تخصيص التوجيه بالأعلى مكانة ورتبة ما يدل على عظيم الأمر في حق الأدنى، فتوجيه الرسول الأمين بذلك هو دلالة على عظيم ما وجهه به ربه عَزَّ وجل، ودلالة على عظيم ذلك الأمر، ووجوب تحقيقه بين من هُم أدنى منه، إذ أن كل أمته أدنى منه، وتحت لوائه عليه الصلاة والسلام بالطاعة والامتثال.

ومن جميل البيان أن العلاقة بين هذه الآية والتي قبلها من حيث الأسلوب، أن التي قبلها عطاء وإكرام واصطفاء من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ والآية التالية لها هي نهي عن الانشغال عنها بغيرها ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فالأولى نعمة عطاء، وفيض من الكرم والجود، وأن الاشتغال بها يحقق الرفعة في الدنيا والآخرة، والثانية متاع ومتعة زائلة، تُشغِل عن مقاصد الأولى، وأن الذي آتاك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، هو الذي أعطاهم متاع الدنيا الزائل، فهو قادر على أن يعطيك ما أعطاهم، ولكن اصطفاك بالعظيم من الأمر والشأن، وهو عطاء بقاء الأثر، وممتد النفع، ومُوصل للمتاع الخالد، وبهذا يدرك من اشتغل بالقرآن العظيم أنه اشتغل بأمر وشأن عظيم.

وهذه الآية الكريمة قاعدة في معالجة التطلع والتشوف لِمَا عند الآخرين، والانشغال بذلك، فإن حصل من النفس ذلك عالج ونبَّه نفسه، بقوله تعالى ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ وإن أراد معالجة شأن غيره في ذلك، نصحه وذَكَّره بقوله تعالى ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ وإن أراد أن يعالج نفسه، ويصلح حاله مع إخوانه المسلمين، خاطب نفسه بقوله تعالى ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وإن أصابه حزن على ممتنع عن الإسلام، أو بما هم عليه من متاع الدنيا، تَذَكَّر قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فتلك قواعد عملية، غاية في الأهمية.

ثم يوجه اللهُ تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى المزيد من منهجية التعامل مع الكافرين ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ فأوضح لهم، وأخبرهم بأنك نذير لهم من عذاب الله تعالى، وأعلمهم بأن ما أُنْذِرُكُم به وعنه واضح وصريح، لا إشكال فيه. مما يفيد أن عنادكم وكفركم لا يضرني بشيء، وأن مهمتي التي أرسلني الله تعالى بها مُقتصرة على الإنذار، بأن أُنذركم من عقابه عَزَّ وجل في الدنيا والآخرة لمن استكبر وكفر. فلا تعتقدوا أن كفركم يمنع مني مصلحة، ولا إيمانكم يحقق لي مصلحة، فالمستفيد من الإنذار هو أنتم. مما يفيد أنك لا تحزن عليهم بسبب كفرهم، وانشغالهم بزينة الحياة الدنيا، فالذي عليك هو النذارة، وإبلاغ الجميع بمضمون الرسالة التي أُرسلت بها. مما يبين تحديد وتعيين المسؤولية والتكليف.

وكذلك يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يُحَذِّرَ الكافرين المشركين من نزول العذاب عليهم، كما أنزله على من توافقوا وتحالفوا على مخالفة الأنبياء فيما مضى من الأمم السابقة، فقال جَلَّ جلاله ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ فإني نذير لكم من أن يصيبكم ما أصاب المقتسمين بالتحالف والتعاضد على أنبيائهم من قبلكم، فإني أنذركم من العذاب الأليم لكم من ربكم عَزَّ وجل، فاحذروا من ذلك. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن ﴿ ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ المتحالفين: أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء، وتكذيبهم، وإيذائهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح، في سورة النمل، بأنهم ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد رحمه الله تعالى: تقاسموا وتحالفوا، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا، فَسُمُّوا مقتسمين[1] وكما قال تعالى في سورة النحل عن المشركين المكذبين ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ وفي هذا تحذير وإنذار لكل من كفر، بأن لهم العبرة فيمن سبقهم من الأمم المكابرة، الذين من قوة عنادهم أنهم اقسموا على تكذيبهم لأنبيائهم، ومحاربتهم، والطعن في آياتهم. مما يفيد عليكم بأخذ العبرة من غيركم. وفي هذا بيان لأهمية التفكير والاعتبار في الأمور، وخاصة ما يتعلق بالدين وبالآخرة، التي هي محطة الوصول، فإما عذاب وإما جنة ونجاة. فالمعنى العام هو: فيا أيها الذين فرقوا القرآن، فإني نذير لكم من أن يصيبكم ما أصاب المقتسمين من قبلكم، من العذاب الأليم، فاحذروا من ذلك.

ومن غزارة دلالة ﴿ ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أنها شملت أصناف من ينطبق عليهم هذه الدلالة، وملخصها مما أورده وجمعه ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنهم اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٨/٢)

عنهما، وبه قال الحسن، ومجاهد. فإنهم آمنوا ببعض القرآن، وكفروا ببعضه. وقيل: أنهم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: هذه السورة لي، وقال آخر: هذه السورة لي. وقيل: أنهم اقتسموا كتبهم، فآمن بعضهم ببعضها، وآمن آخرون بما كفر به غيرهم. وقيل: أنهم مشركو قريش، فأقوالهم تقسَّمت في القرآن، فقال بعضهم: إنه سحر، وزعم بعضهم أنها كهانة، والبعض قال: إنها أساطير الأولين. وقيل: أنهم قوم صالح، لأنهم تقاسموا ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ﴾ فكفاه الله شرهم[١] فاستوعبت دلالة ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾ كل من تقاسموا وانقسموا، وتحالفوا وخالفوا، وسواء ما كان من اليهود والنصارى، أو قوم صالح، أو كفار قريش، أو غيرهم من الأمم السابقة عموماً، مما يدل على الإعجاز البياني في القرآن الذي تستوعب اللفظة منه جميع المقاصد والأوجه، من غير تعارض، ولا تضاد، ولا حاجة لتكرار البيان. بل إنه في تكامل من الدلالات، مع وحدة البيان. فجمع الله تعالى فيه البلاغة والفصاحة والإعجاز من جميع الأوجه. فإنه كلام الله تعالى المعجز من كل وجه، فسبحان الله العظيم.

ثم بعد العموم خص الله تبارك وتعالى الذين فرقوا القرآن بتجزئته ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ فيا أيها الذين فرقوا القرآن، فإني نذير لكم من أن يصيبكم ما أصاب المقتسمين من قبلكم، من العذاب الأليم، فاحذروا ذلك. وقد أفادت دلالة ﴿ عِضِينَ ﴾ التفرقة والتجزئة، وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن واحدها عضو، وأن عضين، جمعه، وأنه مأخوذ من قولهم: عضَّيتُ الشيء تعضية، إذا فرقته[٢] والمعضي: المفرق، والتعضية: تجزئة الذبيحة أعضاء... وعضوا القول فيه، أي: فرقوا، فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين[٣] وهذا يبين أن من ينكر بعضه فهو من الذين جعلوا القرآن عضين، فاستحق العذاب الأليم، وأن من قدح فيه، بأن نسبه للشعر، أو السحر، أو الكهانة، أو غير ذلك، فإنه من الذين جعلوا القرآن عضين.

ثم يخبر الله تعالى عَمَّا سيكون عليه حال الكافرين ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ فيقسم الله تعالى ليسألن هؤلاء الكافرين جميعاً يوم القيامة ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ليسألنهم عَمَّا كانوا يعملون في الدنيا من الكفر والجحود، وعن كلمة التوحيد، التي هي: لا إله إلا الله، وعن إفراده بها سبحانه وتعالى، وكذلك ليسألنهم عن قَدْحِهِم في كتابه الكريم، وفي هذا تهديد ووعيد وزجر لهم عَمَّا هم فيه من الكفر، ومن القدح في

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٠٥-٣٠٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٣٦)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٠٦)

القرآن العظيم. وورد السؤال عاماً، ليشمل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن سبق من الكافرين، فهو سؤال عن جميع ما كانوا يعملون، ليشمل كفرهم، ومحاربتهم للدين وللمرسلين، وما يقدحون فيه، وما يصفون به دين الله تعالى والمرسلين، ومن ذلك ما ينسبونه للقرآن العظيم، وما يصفونه به من نعوت السحر والشعر والكهانة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم. ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا[1] فهو سؤال تقرير عما كانوا يعملون من تلك الأعمال الباطلة، التي يحاربون بها الحق المبين الواضح.

ولعظمة ما توعد الله تعالى به المكذبين أقسم تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، الدالة على ربوبيته ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ أي: فوربك يا محمد صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق هذا القسم هو إضافة القسم إلى ضمير المخاطب المتمثل في نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ فوربك يا محمد، وهو أصدق القائلين، وفي هذا رفعة لمنزلته صلى الله عليه وسلم. وقوة تهديد للكافرين.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يبالي بطعون الكافرين، وصدودهم عن الدين، بل عليه أن يستمر في إبلاغ الناس برسالة الله تعالى لهم ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فاجهر أيها النبي وأعلن ما أمرك الله تعالى به من الدين ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ولا تبالي بالمشركين، وطعونهم، واستهزائهم، أي: أقبل على ما أنت فيه من مهمة، ولا تلتفت لاستهزائهم، وإعراضهم، فأعرض عن إعراضهم، ولا تشتغل وتنشغل بالرد عليهم، ولا باستفزازهم. وفي هذا تقرير قاعدة عظيمة للداعية، وللعامل في عمله، والإداري في إدارته، والحاكم لبلده، بأن لا يلتفت ولا ينشغل بأعدائه ومبغضيه عن الحق الذي يسير فيه. بل يمضي قدماً في شأنه، طالما أنه يسير وفق مراد الله تعالى ونهجه.

ومن دقة البيان وجزالته أن كلمة ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ تحمل معنى العزيمة القوية بالجهر والإعلان فيما أُمِرَ به صلى الله عليه وسلم، وهي تأتي بمدلول الشق والانشقاق، فَشُقَّ طريقك بينهم، لِتُظهِر لهم جميع ما عندك من البينات والهدى، ولينتقل عليه الصلاة والسلام من التخفي وسرية الدعوة إلى الصدع بها، فيمتنع بهذا الأمر عن التخفي والإخفاء بالدعوة. وتفيد دلالة ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ أن أظهر ما عندك، فاكشف بالحق عن الباطل، وأعلنه واجهر به بين الناس جميعاً، لأنه ينتج عن الصدع ظهور ما كان خافياً. ولتتفرق وتتمزق كلمة الباطل، بدخول بعض حامليها في دين الله تعالى. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٩/٢)

مستخفياً حتى نزلت ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه(١) مما يبين أنها كانت فارق بين مرحلتين في الدعوة النبوية الكريمة العظيمة. فهي بداية الدعوة الجهرية، ونهاية الدعوة السرية، مما يفيد أهمية التدرج، والعمل بالحكمة التي تحقق الهدف والمراد.

ثم يخبر الله تعالى بما يُثَبِّتُ به فؤاد نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ إنَّا قد تولينا ما يسدك ويغنيك في شأن المستهزئين بك وبالقرآن العظيم، ومن آمن معك، فأنت في كفاية منهم، وقد تصدر البلاغ الحكيم بأداة التوكيد، إن ﴿ إِنَّا ﴾ وانظمت إلى ضمير المتكلم سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا ﴾ ثم أعقبتها الكفاية من الله تعالى ﴿ كَفَيۡنَٰكَ ﴾ والكفاية هنا هي: أن الله تعالى هو الذي يلي شأنك وما أهمك، ويتولى شأن المستهزئين بنبيه صلى الله عليه وسلم، فهو المتولي لأمر المستهزئين بما يشاء. مما يبين أن استهزاءهم قد تعاظم، وتطاولوا فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، حتى شق عليه ذلك الأمر، فتولى الله سبحانه وتعالى أمر المستهزئين بما يشاء عَزَّ وجل من التدبير الحكيم. مما يدل على عظيم ما كان من الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به عليه الصلاة والسلام من ربه تبارك وتعالى، فإن الله جَلَّ جلاله متولي أمر المستهزئين بما يستحقون. ولذلك لم ينالوا شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عدد كبراء المستهزئين خمسة: الوليد بن المغيرة، وأبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، قاله ابن عباس رضي الله عنهما... وقال عكرمة رضي الله عنه: هلك المستهزئون قبل بدر، وقال ابن السائب: أُهلِكُوا جميعاً في يوم وليلة(٢) فقد كفا الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم المستهزئين بإهلاكهم. مما يبين ويُظهر عظمة تدبير الله عَزَّ وجل، وأنه لهم بالمرصاد الذي استأصلهم به من الأرض. مما يقوي عزيمة المؤمن على السير في مساره الصحيح أمام أعداء الحق.

ثم وصف الله تبارك وتعالى المستهزئين بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فلقد جمعوا بين الشرك وبين الاستهزاء بدين ربهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ فإنهم يعبدون مع الله عَزَّ وجل معبوداً آخر، مما يخترعونه من الأوثان والأصنام. وأورد الله تعالى صنيعهم بصيغة الاستمرار ﴿ يَجۡعَلُونَ ﴾ وهو فعل مضارع مستمر، يدل على أنهم مستمرون في ذلك الوقت، رغم الدلائل والبينات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم لهم بها. فهؤلاء مهددون بوعيد من الله عَزَّ وجل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٤١) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٧٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٠٨-٣٠٩)

﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فسوف يعلمون جزاء استهزائهم وشركهم، وقد أضمر العذاب ووقته إمعاناً في بيان قوة التهديد والوعيد الشديد، المتضمن للعذاب الأليم العظيم. مما يدل على إن افتراءهم تجاوز الافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم، بوصفهم له أنه ساحر، وكاهن إلى مقام الله تعالى، فجعلوا مع الله تبارك وتعالى شريك في ملكه، من الأصنام التي يخترعونها بأنفسهم.

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن علمه جَلَّ جلاله بما يلج في نفسه مما يقولون عليه من الافتراء ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فبعد التسلية السابقة من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بكفايته لاستهزاء المشركين ومكرهم وشرهم، يخبره تبارك وتعالى بأنه يعلم أقصى وأدق أحوال رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فنعلم بما يغمك من كلامهم وبهتانهم عليك من الوصف والنعت بأنك ساحر ومجنون وكاهن. مما يدل على عظيم وعظمة الاهتمام من ربك تبارك وتعالى بشأنك أيها النبي، فإننا نعلم ما تواجه منهم، حتى ضاق صدرك بما يقولون من أقوال البهتان. وفي هذا عناية ومعية من الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام، وبما يفيد اطمئن أيها النبي بهذا العلم من ربك بك. مما يبين دقة علم الله تعالى، ومعيته، وبما يفيد أن عليك بالصبر، وأهمية الصبر، وأن الله تعالى مُطَّلِع على القلوب، فلا يفوته شيء من شأن أحد من خلقه، مهما كان خفياً عن غيره. فإن من صبر على غيره من الناس، وعلى أوجاعه وآلامه منهم، فإن الله تعالى مطلع عليه، وسوف يجازيه الجزاء الأكمل، مما يستوجب أن على المؤمن أن يكون في تعامله مستحضراً لعلم الله تعالى به وبحاله، وبغيره.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى العلاج الذي يزيل به هذا الضيق ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي: فاذكر ربك سبحانه وتعالى بالثناء والتمجيد، من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والركون إلى الصلاة، وبذلك يزول همك وما في قلبك من الضيق. فلا تكترث بالمعوقات، وواظب على ما كُلِّفت به من الرسالة. وفي هذا بيان من الله تعالى إلى أن ذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والفزع إلى الصلاة علاج للقلوب. وقد جاء في الحديث، عن حذيفة رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول عند الكرب (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم) [٢]

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود (٧٨/٢) برقم (١٣١٩)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٢٠٩٢/٤-٢٠٩٣) برقم (٢٧٣٠)

ثم يقول تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ أي: واعبد ربك حتى يأتيك الموت، الذي أنت موقن به أيها النبي صلى الله عليه وسلم. وعن مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم أنه الموت(١) ففي هذا أمر بالإقامة على العبادة وما كلفه الله تعالى به من الدعوة حتى الموت. مما يفيد تعظيم أمر الثبات على العبادة، وعدم التراخي عنها حتى تُقْبَض روح المؤمن. وقد كان صلى الله عليه وسلم يمثل ما أمره ربه تبارك وتعالى قائماً دائباً بالعبادة حتى توفاه الله تبارك وتعالى، فكان القدوة والأسوة للمؤمنين في عبادته وأخلاقه، وجهاده، وصبره، ودعوته لدين الله تعالى، اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، واجزاه عنا خير الجزاء، وارض اللهم عن آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين، واجعلنا معهم برحمتك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

تم بحمد الله إتمام سورة الحجر، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٥٤-١٥٦)